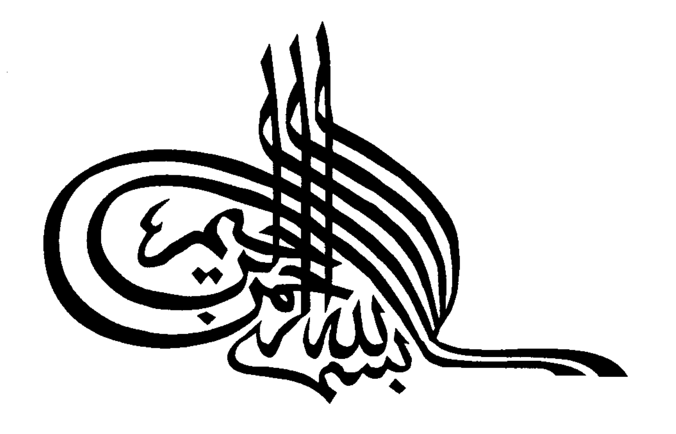
آيةُ الله جوادي آملي

أسرار الصلاة



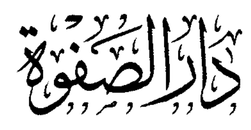


أسرار الصلاة



أسرار الصلاة

آية الله جوادي آملي



١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م



للطباعة والنشر والتوزيع
بئر العبد - خلف محطة دياب
تلفاكس : (+9611) 27 49 42 _ (+9611) 55 29 00
جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت - لبنان
E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وإيّاه نستعين

الحمد لله الَّذي يعلم السرّ وأخفىٰ، والصلاة على صاحب سرّه الَّذي دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنىٰ، وعلى أهل بيته الَّذين هم مواضع سرّه، وحُماة أمره، وعِياب علمه، وموائل حكمه، وكهوف كتبه، وحبال دينه، بهم نتولّىٰ، ومن أعدائهم نتبرّأ الى الله الَّذي كلّ سِرٍّ عنده علانية.

وبعد، فيقول العبد المُفتاق إلى الله الجواد، عبدالله الجواديّ الطبريّ الآمليّ: هذه وجيزة حول أسرار الصلاة، معمولة ممّا ورثتها من السلف الصالح، أو سنح لي وأورثته للخلف الفالح، لتكون ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، راجياً منه سبحانه أن يصونها عن شوب طلب ما سواه، وأن يجعلها خالصةً لوجهه الَّذي لابقاء لما عداه، وأن يصحّح عيبها، ويُكمِل نقصها، ويُتمّ قصرها، ويُقرّب بُعدها، حتّى تصير كَلِماً طيّباً يصعد اليه.

وحيث إنّ الصلاة عمود الدين: إن قبلت قبل ماسواها، وإن ردّت رُدّ ماسواها، وكلّ عملٍ تابعٌ للصلاة[1] تكون أسرارها أعمدة أسرار الدين، إن نيلَت وشُوهدت أسرارها تُنال وتُشاهد أسرار ماعداها، فبالحَري أن يجاهد السالك ويجتهد العارف لأن ينال ويشهد ما هو عمود أسرار الدين، حتّى ينال الدين كلّه ويشهده تمامه، ويستظلّ تحت ولائه جلّ شأنه، يوم لاظلّ إلّا ظلّه.

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٢٧ «كلّ شيء من عملك تَبَعٌ لصلاتك».

وليعلم: أنّ السرّ في قبال العلن، كما أنّ الغيب في قبال الشهادة، وهو على قسمين:

أحدهما: هو السرّ البحت، كالغيب المطلق.

وثانيهما: هو السرّ المقيّد والمقيس، كالغيب المضاف، كما أنّ العَلَن كالشهادة على قسمين: مطلق ومقيّد مقيس.

ولمّا كان معنى السرّ المقابل للعلن واضحاً بحسب المفهوم لم يحتج الى التفسير وإن كان بحسب الكنه في غاية الخفاء، وإذا أُحرز وجوده ينتظم البحث الصناعيّ ـ حينئذٍ ـ من أنّ السرّ ما هو؟ وأنّه هل هو؟ وأنّه كم هو؟ ومادام لم يثبت وجوده لا يصحّ تقسيمه، كما لايصحّ ترتيب سائر مايتفرّع على وجوده.

والّذي يدلّ على وجود السرّ للصلاة أمران:

الأوّل: ما يعمّها وما عداها بلا اختصاص لشيءٍ من ذلك.

والثاني: مايختصّ بها، أو يختصّ بالأمر العباديّ، سواء كان صلاة أو غيرها.

ثمّ الّذي يدلّ على وجود السرّ لكلّ شيءٍ: إمّا عقليّ مشفوع بالنقليّ، وإمّا نقليّ مؤيّد بالعقليّ. فالبحث في مقامين:

المقام الأوّل: في الدليل العقليّ.

والمقام الثاني: في الدليل النقليّ.

أمّا المقام الأوّل

في الدليل العقليّ المشفوع بالدليل النقليّ

فهو: أنّ لكلّ شيءٍ موجود في العالم الطبيعيّ له وجودات أُخر في العوالم الثلاثة السابقة عليه: من عالم المثال، وعالم العقل، وعالم الإله، يعني: أنّ لكلّ شيءٍ طبيعيٍّ وجوداً مثالياً يشاهد بصورته المثالية، ووجوداً عقلياً ينال بحقيقته، ووجوداً إلهيّاً، إذ الإله هو بسيط الحقيقة، وهو كلّ الأشياء، وليس بشيءٍ منها، ولا يُنالُ

الوجود الإلهيّ للأشياء إلّا لله سبحانه ولمن فَنى فيه، يشاهد ـ حينئذٍ ـ تلك الأشياء أيضاً، ولكن بلا شهود تعيّنها، كما لايشهد تعيّن نفسه.

والمعهود من غير واحدٍ من آل الحكمة هو: تثليث العوالم من الطبيعة والمثال والعقل؛ لعدم اتّضاح قاعدة بسيط الحقيقة كلّ الأشياء لديهم، وأمّا المشهود للأوحديّ منهم هو التربيع بعد اتّضاح تلك القاعدة. فكلّ عالٍ هو سرٌّ للداني، كما أنّه غيب له، الى أن ينتهي الأمر الى السرّ الصرف الّذي هو الغيب البحت.

ثمّ إنّ المثال الحقّ قد يكون مقيّداً، وقد يكون مطلقاً؛ وذلك: إمّا بنحو الاتّصال بالنفس، أو الانفصال عنه، أو بنحوٍ آخر، وهكذا العقل: قد يكون مقيّداً وقد يكون مطلقاً، وكلّ ذلك إنّما يصحّ أن يكون سرّاً إذا كان حقّاً موجوداً في نفس الأمر، تناله النفس المتحرّكة بجوهرها، لا ما نَسجَته يد الوهم أو لفّقتهُ يدِ الخيال؛ لأنّه باطل ولا سرّله. وحيث إنّ البيان العرفانيّ موافق للبيان البرهانيّ يكون هذا التربيع مشهوداً لدى العارف الواصل، كما أنّه يكون معقولاً للحكيم الكامل، وتفصيل ذلك على ذمّة الحكمة المتعالية، وعلى كاهل العرفان النظريّ، وسيأتي الدليل القرآنيّ المؤيّد لما نطق به البرهان وشاهده العرفان.

وأمّا المقام الثاني

في الدليل النقلي المؤيّد بالدليل العقلي

فهو: أنّ الصلاة كغيرها من العبادات ممّا بيّنه القرآن الحكيم، وكلّ ما بيّنه القرآن فله تأويل كما له تفسير، وله باطن كما له ظاهر، ولابدّ أن يكون التأويل ملائماً للتفسير، والباطن موافقاً للظاهر. والتأويل إنّما هو: أمر عينيّ لا ذهنيّ، ومصداق خارجيّ لا مفهوم نفسيّ، وسيظهر ذلك التأويل يوم تُبلى السرائر، كما قال سبحانه: «هَلْ ينظرونَ إلّا تأويله يوم يأتي تأويلهُ يقولُ الّذينَ نَسُوهُ من قبلُ قد

جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقّ»(١).

والّذي أنتجه هذا القياس الاقترانيّ المسوق على الشكل الأوّل البديهيّ الإنتاج هو: أنّ للصلاة تأويلاً يأتي ذلك التأويل يوم القيامة، وحيث إنّ للظاهر بطوناً متراقيةً بعضها فوق بعضٍ فللصلاة بطون وتأويلات متدارجة بعضها فوق بعضٍ، فينطبق على ما نظر إليه البرهان، وأبصَره العرفان.

وممّا يدلّ أيضاً على أنّ للصلاة كغيرها من العبادات سِرّاً هو: أنّها من الموجودات المعدودة جزءاً من السماوات والأرض، أي: النظام العينيّ، وكلّ موجودٍ هو جزء من النظام العينيّ العامّ فله غيب، كما أنّ له شهادةً. وقال سبحانه: «ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه»(٢)، وليس المراد هو خصوص ماغاب عنهما، بل يشمل غيبتهما أيضاً.

والّذي أنتجه هذا القياس أيضاً هو: أنّ للصلاة غيباً كما أنّ لها شهادةً، وحيث إنّ للظاهر بطوناً ـ وكلّ باطنٍ فهو غيب للظاهر ـ فللصلاة غيوب متراقية بعضها فوق بعضٍ، فينطبق على ماتقدّم من معقول البرهان ومشهود العرفان.

وممّا يدلّ أيضاً على أنّ للصلاة ولغيرها سرّاً بالتقريب المتقدّم قوله سبحانه: «وإن من شيءٍ إلّا عندنا خزائنُه وما نُنزِّلُهُ إلّا بقدرٍ معلومٍ»(٣)، وقوله سبحانه: «ولله خزائنُ السمواتِ والأرضِ...»(٤)؛ وذلك لأنّ الصلاة شيء خارجيّ على ما يأتي، فهي ممّا له خزينة، بل خزائن؛ لأنّ ظاهر الآية هو: أنّ لكلّ شيءٍ خزائن، لا أنّ لمجموع الأشياء خزائن حتّى يكون من باب وقوع المجموع قبال المجموع الآخر، فعليه يكون لكلّ موجودٍ طبيعيٍ خزائن بعضها فوق بعض، فينطبق على تعدّد العوالم حسبما قرّر.

وحيث إنّ القرآن الحاوي للصلاة وغيرها أيضاً شيء خارجيّ في عالم الطبيعة

---

(١) الأعراف: ٥٣.
(٢) هود: ١٢٣.
(٣) الحجر: ٢١.
(٤) المنافقون: ٧.

فله بما فيه من المضـامين خزائن إلهيّة، قد تنزّل القرآن من تلك الخزائن الطوليّة، كما أنّ الصلاة وغيرها معدودة مـن النظام الكيانيّ المعبّر عنه بالسماوات والأرض فلها أيضاً خزائـن، إذ للسمـاوات والأرض خـزائن، ولمّـا كانت تلـك الخزائن عـندالله سبحانه ـ وما عندالله باقٍ، وما عند غيره فانٍ كما قال سبحانه: «ماعندكم يَنْفَدُ وما عـندَالله باقٍ»[1] ـ فأسـرارالسـماوات والأرض الّتي منها الصلاة مـوجودات خارجيّة مصونة عن النـفاد، ولا تُنال إلاّ بالصعود إليها بعد هجران النافد الزائل، إذ لا يمكن الوصول إلى الباقي إلاّ بعد هجره الفاني؛ لأنّه حجاب لا محيص عن تركه.

وممّا يدلّ أيضاً على أنّ للصلاة ـ كغيرها ـ سرّاً قوله تعالى: «فسُبحانَ الّذي بيدهِ مَلكُوتُ كلِّ شـيءٍ»[2] لدلالته على أنّ لكلّ شيءٍ ملكوتاً يلائمه التسبيح، بخلاف المُلك الّذي يناسـبه التبارُك كما قال تعـالى: «تباركَ الّذي بيدهِ المُلْكُ»، حيث إنّ التبارُك من الأسماء التشبيهيّة، والسُبحان من الأسماء التنزيهيّة. ولمّا كان لكلّ شيء ملكوت ـ وهي أمر وراء الـمُلك، ومَن شاهدها كان من أصحاب اليقين كما قـال تـعالى في إبـراهيم عـليـه السـلام: «وكـذلك نُـرِيَ إبـراهيمَ ملـكـوتَ السمواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين»[3] ـ فـللصلاة أيضاً ملكوت تـكون هي سرّها، وتلك الملكوت ثابتة؛ لأنّـها بيد الله تعالى لا بيـد المصلّي، ولا تنال تلك المـلكوت السرّيّة إلاّ بعد السفر من المُلك.

ولعلّ قوله تعالى: «قـل أنزله الّذي يعلم السرَّ في السموات والأرض»[4] تلميح إلى بعض ما مرّ؛ وذلك لأنّ وصف الله الّذي أنـزل القرآن بأنّه عالم السرِّ يُشـعر بأنّ للقرآن المشـتمل على مـا فيه من المـعارف والأخلاق والأحـكام سرّاً فلجميـع ما فيه أيضاً أسرار.

نـعم، فرقٌ بين أن يقـال: إنّـه عالم سرِّ السماوات والأرض، وأن يـقال: هوعالم

---

(١) النحل: ٩٦.
(٢) يس: ٨٣.
(٣) الأنعام: ٧٥.
(٤) الفرقان: ٦.

السرّ فيهما، إذ الأوّل دالّ على أنّ لهما سرّاً دون الثاني، ولكنّ وصف الباري المنزل للقرآن بأنّه عالم السرّ يُشعر بأنّ للقرآن سرّاً، وإن كان فيما مضى غنىً وكفاية.

بقي أمرٌ هامٌّ، وهو: أنّ نطاق الدليل خاصّ بالموجود التكوينيّ، وهكذا ظاهر غير واحدةٍ من الآيات المارّة الذكر، لظهورها في الموجود العينيّ، وحيث إنّ الصلاة وغيرها من العبادات أُمور اعتباريّة مؤلّفة من عدّة أشياءٍ لا وحدةَ لمجموعها فلا وجود للمركّب منها، إذ الوجود مساوق الوحدة يدور معها حيثما دارت، فمتى انتفت الوحدة في موردٍ ينتفي الوجود هناك، ولمّا انتفت الوحدة الحقيقيّة للمؤلَّف من تلك الأُمور: كالركوع والسجود والقراءة والقيام والذكر والنيّة ونحوها فلا وجود للمركّب منها، وعليه فلا يندرج تحت الدليل العقليّ، ولا يشمله الدليل النقليّ؛ لاختصاصهما بما له وجود عينيّ.

والحلّ هو: أنّ الأمر الاعتباريّ قد يكون اعتباريّاً محضاً لا مَنشأ له عدا الاعتبار الّذي زمامه بيد المعتبر، وقد يكون اعتباريّاً مستنداً إلى موجود تكوينيٍّ هو المُصحّح له.

والقسم الأوّل من الاعتباريّ خارج عن البحث، كما أنّه خارج عن نطاق الدليل الدالّ على أنّ لكلّ شيءٍ سرّاً.

والقسم الثاني منه داخل في البحث، كما أنّه مندرج تحت الدليل المذكور، إذ الّذي يكون استناده إلى أمرٍ تكوينيٍّ عينيٍّ يكون محكوماً بحكمه سعةً وضيقاً، فهناك وحدة حقيقيّة يدور معها الوجود الحقيقيّ، فهناك سرّ تكوينيّ نصّاً.

ثمّ إنّه يمكن أن يُستأنس ببيانٍ آخر لإثبات السِرّ للصلاة، من حيث اشتمالها على القرآن الّذي تكلّم به الله تعالى، وحيث إنّ المتكلّم قد تجلّى في كلامه وكتابه ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فتجلّى لهم سبحانه في كتابه، من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته»[1] ـ فيكون المتكلّم المتجلّي سرّاً وغيباً وباطناً في كلامه، فالقارئ المصلّي إذا تدبّر في القرآن الّذي يقرأه في صلاته وتطهّر عن دنس

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة «١٤٧».

العصيان وتنزّه عن رَيْن الذنب، بل عن لوْث التعلّق بغير الله يراه بقلبه، أو يصل الى حدٍّ كأنّه يراه، ويعلم أنّه إن لم يكن يراه فإنّ الله سبحانه يراه قطعاً.

وهذا الوجه كما أنّه غير مُختصٍ بالصلاة ـ لتحقّقه في غيرها أيضاً ممّا يقرأ فيه القرآن ـ لا يعمّ جميع أحوال الصلاة أيضاً؛ لعدم جريانه في غير قراءة الفاتحة والسورة الأُخرى وما يقرأ من القرآن حال الصلاة.

الى هنا انتهى الأمر الأوّل في نُبذٍ ممّا يدلّ عقلاً أو نقلاً على أنّ للعبادة الّتي منها الصلاة سرّاً بلا اختصاصٍ لذلك بها، أي: بالصلاة.

وأمّا الأمر الثاني الباحث عمّا يختصّ بالدلالة على أنّ للصلاة سرّاً فسيأتي إن شاء الله في ثنايا هذه الرسالة.

فتبيّن في هذا المدخل أمورٌ:

الأوّل: أنّ السرّ المقابل للعَلَن: إمّا مطلق وإمّا مقيّد.

الثاني: أنّ الدليل على وجود السرّ للصلاة عامّ وخاصّ.

الثالث: أنّ الدليل العامّ عقليّ ونقليّ.

الرابع: أنّ الأمر الاعتباريّ المعتمد على التكوين محكوم بحكم الأمر الحقيقيّ، بخلاف الأمر الاعتباريّ العازي عن الاعتماد المذكور.

الخامس: أنّ الله سبحانه قد تجلّى في كتابه وكلامه.

السادس: أن المصلّي المتطهّر عن دَنس التعلّق بما عدا الله تعالى: إمّا يشاهده بقلبه، وإمّا يصل إلى مقام الإحسان.

السابع: بعض أدلّة السرِّ مختصّ بحال القراءة.

وحيث إنّ للصلاة مقدّماتٍ تتقدّم ماهيتها، وتعقيباتٍ تتأخر عنها، ولكلٍّ من الماهية وحاشيتها أسرارٌ خاصّة فلذا يكون نَضد هذه الوجيزة على فاتحةٍ وصلاتٍ وخاتمةٍ، بأن تكون الفاتحة كافلةً لنزرٍ من أسرار مقدّماتها، وكلّ صلةٍ من تلك الصلات الموصولة حاويةٌ لنُبَذٍ من أسرار أركانها وأجزائها المقوّمة لها، والخاتمة مشتملة لعدّةٍ من أسرار تعقيباتها، فها نحن نبدأ بعونه تعالى.

الفاتحة

في أسرار مقدّمات الصلاة

لعلّك كنت مقروع السمع بالمَيز بين السرّ والحكمة والأدب، حيث إنّ سرّ العبادة - كالصلاة - يرجع إلى ملكوتها ومافوقها، وما يؤول الى باطنها.

وأمّا حكمتها: فهي الغاية المترتّبة عليها من العروج، والنجاة عن الهَلَع و...

وأمّا أدب العبادة - كالصلاة - فيرجع إلى وصف المصلّي، بأن يكون حاضر القلب، خاشع القالب، مستديم الذكر، صائناً عن الالتفات إلى غير المعبود، مع ماله من الأوصاف الظاهريّة المعهودة، فأين ذلك من السرّ؟ فبينهما فرقان.

نعم، لا يُنال سِرّ الصلاة إلّا بحفظ الأدب، فالآداب عِللٌ معِدّة، وأسباب ممدّة لنيل نُبَذٍ من أسرارها، إذ النيل الى الباطن لا يمكن إلّا لمن طهر ضميره، وصفا باطنه، وسلم قلبه، فكما أنّ ظاهر القرآن لا يمسّه إلّا المتطهّر من الحدث، وباطن القرآن لا يمسّه إلّا المتطهّر من دنس الذنب كذلك ظاهر الصلاة لا يأتيهِ إلّا المتوضّئ أو المغتسل، وباطنها لا يأتيه إلّا المتطهّر عن لوث النظر إلى غير المعبود الّذي يُصلّى له، للزوم التناسب بين الشاهد والمشهود؛ لأنّ المحجوب والمضمور في نشأةٍ لا يشاهد مافوقها، ولذا لايشهد الحسّ ما يشاهده الخيال، كما لايشهد الخيال ما يشاهده العقل.

وحيث امتاز سرّ الصلاة عن أدبها كامتياز سرّها عن حكمتها يلزم البحث عن خصوص أسرارها دون آدابها وإن تجشّم الغزاليّ، و وافقه غير واحدٍ من الأعلام نحو:

زين الدين بن عليّ المشهور بالشهيد الثاني رحمه الله (٩١١ـ٩٦٥هـق)، والمولى محسن القاسانيّ الملقّب بالفيض، وغيرهما من المتأخّرين في البحث عن حضور القلب والإخلاص والنيّة، وما الى ذلك ممّا يرجع إلى آداب الصلاة، أو أوصاف المصلّي، وأين ذلك من البحث عن أسرار الصلاة ولابّتها؟ لأنّ سرّ الصراط السويّ الى الصلاة هو غير سرّ السالك الى المصلّي وأن لا يسير على سرّ الصلاة وباطنها إلّا سرّ المصلّي وباطنه؛ للزوم التناسب بين السالك والمسلك في العمل كلزوم التناسب بين العالم والمعلوم في النظر.

ثمّ إنّه وإن تقدّم في المدخل أنّ للعقل مدخلاً في إثبات الأسرار كالنقل والكشف إلّا أنّ ذلك فيما يرجع إلى الأمر العامّ والكلّيّ والمطلق والصرف، وأمّا الخاصّ والجزئيّ والمقيّد والمشوب فلا دخالة للعقل في شيءٍ من ذلك؛ لعدم جريان البرهان العقليّ المأخوذ من المقدّمات الكلّيّة في الأمر الجزئيّ الخاصّ.

نعم، للعقل أن يُبيّن الخطوط الرئيسة، حتّى لا يناقضها الجزئيّ المنقول أو المشهود. وإنّما المهمّ في إثبات سرٍّ خاصٍّ لعبادةٍ مخصوصةٍ هو: النقل المعتبر، أو الكشف الخالص عن شوب التمثّل الشيطانيّ أو النفسانيّ، وله ميزان يوزن به عند أهله، كما أنّ للنقل قسطاساً مستقيماً يوزن به عند أهله.

إنّ النظام العينيّ من الواجب والممكن مَنضودٌ بالنَضد العِلّيّ الّذي لا يتخطّاه شيء في أصل وجوده، ولا في كمال وجوده، ومن المبيّن في موطنه أنّ الداني لا يؤثّر في العالي، كما أنّ الظاهر لا يصير علّةً للباطن وإن أمكن أن يكون ذلك كلّه علامةً أو علّةً إعداديّةً، بل المؤثّر في العالي هو الأعلى منه، كما أنّ العلّة للباطن ما هو الأبطن منه، الفائق عليه. ومن هنا يظهر سرّ ما ورد في الطهارة الّتي هي من مقدّمات الصلاة حسبما رواه أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ (المتوفّى ٢٧٤ أو ٢٨٠ هـق) في المحاسن بإسناده عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال: بينما أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ قاعد ومعه ابنه محمّد إذ قال: يا محمّد، ائتني بإناءٍ فيه ماء أتوضّأ منه للصلاة، فأتاه محمّد بالماء، فأكفأ ـ عليه السّلام ـ بيده اليسرى على اليمنى،

ثمّ قال عليه السّلام: بسم الله الّذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً، ثمّ استنجى، فقال: اللّهمّ حصّن فرجي وأعفّه، واستر عورتي، وحرّمني على النار، ثمّ تمضمض فقال: اللّهمّ لقّني حجّتي يوم ألقاك، وأنطِق لساني، ثمّ استنشق وقال: اللهمّ لا تحرمني ريح الجنّة، واجعلني ممّن يشمّ ريحها وطيبها، ثمّ غسل وجهه وقال: اللهمّ بيّض وجهي يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، ثمّ غَسلَ يده اليمنى فقال: اللهمّ أعطني كتابي بيميني، والخُلد في الجنان بيساري، ثمّ غسل يده اليسرى فقال: اللهمّ لا تعطني كتابي بيساري، ولا تجعلها مغلولةً إلى عنقي، وأعوذبك من مقطعات النيران، ثمّ مسح على رأسه فقال: اللهمّ غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك، ثمّ مسح على قدميه فقال: اللهمّ ثبّتني على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام، واجعل سعيي فيما يرضيك عنّي، ثمّ رفع رأسه إلى محمّد فقال: يامحمّد، من توضّأ مثل وضوئي وقال مثل قولي خلق الله له من كلّ قطرةٍ مَلكاً يقدّسه ويسبّحه ويكبّره، فيكتب الله له ثواب ذلك الى يوم القيامة[1].

فقه الحديث: هو أنّ الله سبحانه يخلق بوضوء مَن أراد الصلاة ملائكةً كثيرةً تقدّسه وتسبّحه وتكبّره، وذلك إذا كان الوضوء مثل وضوء عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، والدعاء حال الوضوء هو مثل دعائه عليه السّلام، بأن تكون الأدعية هي الأدعية الّتي دعاها عليّ ـ عليه السّلام ـ بحاله وحضوره، لا أيّ وضوءٍ، ولا أيّ قولٍ ودعاءٍ، بل إذا كان ذلك الفعل وهذا القول فعلاً عَلويّاً وقولاً عَلويّاً، يوجب أن يرتّب الله سبحانه ذلك الأثر الهامّ عليه، أو يتمثّل ذلك الفعل وهذا القول بصورة الملك بناءً على تمثّل الأعمال.

ولا يُستفاد من هذا الحديث أنّ صرف غسل الوجه واليدين ومجرّد مسح الرأس والرجلين على المنهج المعهود لدى أهل البيت عليهم السّلام، وصرف التكلّم بتلك الكلمات المأثورة حين الغسل والمسح يصير سبباً لأن يخلق الله تعالى بكلّ قطرةٍ ملكاً

(١) المحاسن: ج١ ص١١٦ طبع المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السّلام، ورواه الكلينيّ ـ رحمه الله ـ في الكافي: ح٦ ج٣ ص٧٠، والصدوق في من لا يحضره الفقيه: ح٨٤ ج١ ص٤١ وفيهما اختلاف يسير.

مقدّساً ومسبّحاً ومُكبّراً، وليس ذلك إلّا لأنّ للوضوء بما أنّه سبب للطهارة سِرّاً عينيّاً وباطناً خارجيّاً يناله مَن أخلص وجهه لله، ويصل اليه من أسلم قلبه لله، بحيث يصير طاهراً عن كلّ رجسٍ ودَنسٍ، ويكون جوهر طهارته تقديساً وتسبيحاً وتكبيراً، هنالك يصلح لأن يخلق الله من كلّ قطرةٍ من وضوئه ملكاً له تلك الآثار الملكوتيّة، أو يمثّله بذلك المثال.

وممّا يرشد إلى أنّ للوضوء -بما أنّه طهارة عن الرجس- سرّاً خارجيّاً هوما روي عن عليٍّ -عليه السّلام- أنّه قال: «ما من مسلمٍ يتوضّأ فيقول عند وضوئه: سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب اليك، اللهمّ اجعلني من التوّابين، واجعلني من المتطهّرين إلّا كتب في رقٍّ وختم عليها ثمّ وضعت تحت العرش حتّى تدفع إليه بخاتمها يوم القيامة»[١].

إذ المستفاد من هذا الحديث هو: أنّ للوضوء صورةً ملكوتيّةً خارجيّةً، عدا ماله من العنوان الاعتباريّ المؤلّف اعتباراً من عدّة حركاتٍ مع النيّة، وتلك الصورة الصاعدة الى تحت العرش هي سرّ الوضوء المعهود لدى الناس، ومثل هذا الوضوء الّذي له سرّ تكوينيّ هو الّذي يكون نصف الإيمان كما ورد النقل به[٢].

وممّا يؤيّد أنّ الوضوء له باطن مؤثّر في باطن المتوضّئ المتطهّر مارواه غير واحدٍ من الأصحاب: أنّه جاء نفر من اليهود الى رسول الله -صلّى الله عليه وآله- فسألوه عن مسائل، فكان فيما سألوه: أخبرنا يا محمّد، لأيّ علّةٍ تُوضّأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد؟ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «لمّا أن وسوس الشيطان الى آدم -عليه السّلام- دنا من الشجرة، فنظر إليها فذهب ماء وجهه، ثمّ قام ومشى إليها، وهي أوّل قدمٍ مشت إلى الخطيئة، ثمّ تناول بيده منها ما عليها فأكل فطار الحليّ والحلل عن جسده، فوضع آدم -عليه السّلام- يده على أُمّ رأسه

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٢ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٩.

وبكى، فلمّا تاب الله ـعزّوجلّـ عليه فَرَضَ الله عليه وعلى ذرّيّته تطهير هذه الجوارح، فأمره الله ـعزّوجلّـ بَغسْل الوجه لِمَا نظر إلى الشجرة، وأمره بغسل اليدين الى المرفقَين لِمَا تناول بهما، وأمره بمسح الرأس لِمَا وضع يده على أُمّ رأسه، وأمره بمسح القدمين لِمَا مشىٰ بهما إلى الخطيئة»[١].

فقه الحديث: أنّ البحث حول قصّة آدم ـعليه السَّلام ـ خارج عن نطاق هذه الوجيزة، والمهمّ هنا هو: أنّ الأوصاف النفسانيّة أُمور تكوينيّة لا اعتباريّة، فلا توضع ولا ترفع إلّا بأمرٍ تكوينيٍّ يوضع أو يرفع، وعليه فلا يمكن رفع ما طرأ على النفس من رين الخطيئة إلّا بما هو أمر تكوينيّ يُعدّ سرّاً وباطناً لمجموع الغَسل والمَسح حتّى يصلح لأن يكون رافعاً أو دافعاً للأمر النفسانيّ العينيّ.

وحيث إنّ المزيل للرَين النفسانيّ لابدّ وأن يكون في نفسه طاهراً عن أيّ رجسٍ، ومن المعلوم أنّ الظلم والكذب ونحو ذلك أرجاس نفسانيّة لا يجتمع معها الوضوء، فهي بمنزلة الناقض له في فنّ السرّ، كما أنّ الحدث ناقض له في صناعة الفقه، فما ورد من أنّه «لا ينقض الوضوء إلّا النوم أوالحدث و...»[٢] محمولٌ على صناعة الفقه، وما ورد من أنّ «الشعر الباطل أو الظلم اوالكذب ينقض الوضوء»[٣] محمول على فنّ السرّ، يعني: أنّه لا يبقى للوضوء أثر تكوينيّ عند الذنب والعصيان إذا لوحظ باطن الأمر وسرّه، وأن يبقىٰ أثره الاعتباريّ إذا لوحظ ظاهره، ولعلّه لذا حمل ماروا‌ه سماعة في ذلك على استحباب إعادة الوضوء، أو احتمل أن يكون ينقض «بالضاد» مُصحّف ينقص «بالصاد»[٤]. وعلى أيّ تقديرٍ يُستفاد من بعض النصوص نقض الوضوء أو نقصه بالكذب أو الظلم أو الشعر الباطل ونحو ذلك، وليس ذلك إلّا بلحاظ سرّ الوضوء وباطنه.

ومن ذلك يظهر:أنّ سرّ الوضوء هو الطهارة الكبرىٰ عن أيّ رجسٍ[٥] ورجزٍ

---

(١) و (٤) جامع أحاديث الشيعة: ج٢ ص٢٨٢ و٣٨٣. (٥) راجع المائدة: ٦.

(٢) و(٣) وسائل الشيعة: باب ٣و٨ من أبواب نواقض الوضوء ح٤ و٣ ج٤ ص١٨٠ و١٩١.

فعلى المتوضّئ أن يتطهّر عن كلّ ما ورد فيه أنّه نجس أو رجز أو قذارة ورين ودنس، نحو: الشرك الّذي هو الظلم العظيم والرجس الكبير، حيث قال سبحانه: «إنَّ الشركَ لَظلمٌ عَظيمٌ»(١)، وقال تعالى: «إنّما المُشرِكُونَ نَجَس»(٢)، وقد قال أيضاً: «وَما يُؤمن أكثرُهُم بالله إلاّ وَهُم مُشْرِكُونَ»(٣)، يعني: أنّ أكثر المؤمنين مشركون، فأكثرهم نجس بالقذارة الباطنة وإن كانوا طاهرين ظاهراً؛ وذلك لأنّ مشاهدة غير الله تعالى والاعتماد على غيره والثقه بغيره والاستناد الى غيره في شيءٍ من الأقوال والأفعال والأحوال شرك في الباطن، مخالف للتوحيد الخالص، فعلى المتوضّئ أن يتطهّر من ذلك الرجس الباطنيّ أيضاً حتّى يصير موحّداً خالصاً صالحاً لأن يناجي ربّه؛ لكي يناجيه ربّه، وهذا المتطهّر مؤمن لاينجّسه شيء، كما في المحاسن(٤) عن أبي جعفر عليه السّلام. ولمّا كانت المعاصي والذنوب متفاوتةً لأنّ بعضها أقذر من بعض، وكانت الطهارات متمايزةً لأنّ بعضها أطهر من بعضٍ كانت الملائكة الّتي يخلقها الله من كلّ قطرةٍ من الوضوء الخالص أو يمثّلها بصورها -أي: بصور الملائكة- متفاضلة، بأن يكون بعضها أفضل وأرفع من بعضٍ؛ لأنّهم ليسوا سواء كما ورد فيهم: «وما مِنّا إلاّ له مقام معلوم»(٥) فمن كانت طهارته أتمّ كانت الملائكة الّتي تتمثّل تلك الطهارة بصورتها أكمل، وهكذا...

ومن الملائكة مَن هو مبعوث للأُمور العلميّة، ومنهم مَن هو مأمور بالأُمور العمليّة، وللعلم مراتب، وللعمل درجات، فكلّما كانت الطهارة أكمل كانت الملائكة العلميّة أو العمليّة أتمّ حتّى ينتهي الأمر الى مَن هو جامع بين مراتب العلم ودرجات العمل.

وقد تقدّم أنّ لكلّ موجودٍ في عالم الطبيعة له وجود تامّ وكامل لدى الله سبحانه، ويشهد له ما ورد في خصوص الصلاة، وما لها من المقدّمات والأركان

(١) لقمان: ١٣.
(٢) التوبة: ٢٨.
(٣) يوسف: ١٠٦.
(٤) المحاسن: ج١ ص٢٢٥.
(٥) الصافّات: ١٦٤.

والشرائط، كما رواه عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أُذينة، عن أبي عبدالله -عليه السَّلام- قال: قال: ما تروي هذه الناصبة؟ فقلت: جعلت فداك في ما ذا؟ فقال: في أذانهم وركوعهم وسجودهم، فقلت: إنّهم يقولون: إنّ أُبيّ بن كعبٍ رآه في النوم! فقال عليه السَّلام: كذبوا، فإنّ دين الله -عزّوجلّ- أعزّ من أن يُرى في النوم، قال: فقال له سدير الصيرفيّ: جعلت فداك ، فأحدث لنا من ذلك ذكراً، فقال أبوعبدالله عليه السَّلام: إنّ الله -عزّوجلّ- لمّا عرج بنبيّه -صلّى الله عله وآله- إلى سماواته السبع... إلى أن قال: ثمّ قيل لي: ارفع رأسك يا محمَّد، فرفعت رأسي فإذا أطباق السماء قد خرقت، والحجب قد رفعت، ثمّ قيل لي: طأطئ رأسك انظر ما ترىٰ؟فطأطأت رأسي فنظرت الى بيتٍ مثل بيتكم هذا، وحَرَمٍ مثل حَرَم هذا البيت، لو ألقيت شيئاً من يدي لم يقع إلاّ عليه، فقيل لي: يا محمَّد، إنّ هذا الحرم وأنت الحرام، ولكلّ مِثلٍ مثالٌ. ثمّ أوحى الله يامحمَّد، أُدْنُ من صاد، فاغسل مساجدك وطهّرها وصلِّ لربّك ، فدنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله- من صاد -وهو ماء يسيل من ساق العرش الأيمن- فتلقّى رسول الله -صلّى الله عليه وآله- الماء بيده اليُمنىٰ، فمن أجل ذلك الوضوء باليمنىٰ، ثمّ أوحى الله -عزّوجلّ- إليه، أن اغسل وجهك فإنّك تنظر عظمتي، ثمّ اغسل ذراعيك اليمنىٰ واليسرىٰ فإنّك تلقىٰ بيدك كلامي، ثمّ امسح رأسك بفضل مابقي في يدك من الماء، ورجليك الى كعبيك فإنّي أُبارك عليك وأُوطئك موطئاً لم يطأه أحدٌ غيرك ، فهذا علّة الأذان والوضوء(١).

إنّ فقه هذا الحديث الشريف يتكفّل لعدّةٍ من المعارف السرّيّة، ولعلّه يتّضح في ثنايا هذه الرسالة، والّذي يشار اليه هنا هو: أنّ للوضوء وكذا للماء وجوداً كاملاً في العرش، والماء هو الجاري من نهر صاد، الّذي قد عُرفَت إحدى سور القرآن به، وأنّ للوضوء المعهود حكمةً أُشير إلى نبذٍ منها، وهو: أنّ الوجه الناضر والناظر إلى عظمة

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٥، عنه جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٧-١٠.

الربّ لابدّ وأنّ يكون مغسولاً بماءٍ يجري من ساق العرش، أو نازلاً منه، وأنّ اليدين اللتين تلقيان كتاب الله وكلامه لابدّ وأن تكونا مغسولتين بذلك الماء الجاري أو النازل منه، وأنّ الرأس المُبارك ببركة الله، وكذا الرجلين اللتين تطأان موطئاً مباركاً لابدّ وأن يكون كلّ ذلك ممسوحاً ببَلّل الوضوء الحاصل من ذلك الماء.

ولا مِريَة في الفرق بين السرّ والحكمة والأدب، إذ السرّ هو الوجود الغيبيّ للوضوء كما في العرش، والحكمة هي الفائدة المترتّبة عليه كما أُشير إلى شطرٍ منها في حديث المعراج، والأدب هو وظيفة المتوضئ للصلاة من رعاية الإخلاص ونحوه؛ لأنّ المشوب غير طاهرٍ، واللازم هو الطهارة الخالصة حتّى عن شهود الإخلاص؛ لأنّ مَن أخلص لله وشاهد إخلاصه فليس بمخلصٍ، كما أنّ من أخلص لتنفجر ينابيع الحكمة من قلبه فهو بَعدُ ليس بمخلصٍ، حيث إنّه نوى غير الله، وقصد أمراً سواه وهو انفجار ينبوع الحكمة؛ لأنّ المتطهّر المخلص لا يرى غير الله،فضلاً عن أنّه لا يقصد غيره، وإلّا لَمَا كان متوجّهاً إلى عظمة الله فقط، حسبما تقدّم في حديث المعراج.

ولـمّا اتّضح سرّ الطهارة المائيّة وهكذا حكمتها يتبيّن لك الأمر في الطهارة الترابيّة، وأنّ أقصاها التذلّل لدى العزّة المحضة، والتخضّع في ساحة الكبرياء الصرف، والتخشّع عند القدرة المطلقة، نحو ما ورد في حكمة تروك الإحرام من رجحان كون الحاجّ والمعتمر أشعث وأغبر، ولذا قال الله تعالى في حكمة الطهارة الترابيّة كالمائيّة: «ما يُريدُ الله ليجعلَ عليكم من حَرجٍ ولكن يُريدُ ليطهّركم وليتمَّ نعمتَهُ عليكم لعلّكم تشكُرون»[1]، إذ الطهارة الظاهريّة الحاصلة بالماء المُذهِب رجز الشيطان حسبما في قوله تعالى: «... ويُنزِّلُ عليكم من السماء ماءً ليُطهّركُم ويُذهِبَ عنكم رجزَ الشيطان...»[2] وإن لم تحصل بالتراب ولكنّ التذلّل العبوديّ يحصل به كما يحصل بالماء، فالتراب والماء من هذا الحيث سواء.

---

(١) المائدة: ٦.   (٢) الأنفال: ١١.

ولمّا لم يلزم أن يكون البدل كالمبدل كمّاً وكيفاً لم يلزم في التيمّم مسح الرأس، كما لم يلزم مسح الرجل أصلاً، لا لأنّ وضع التراب على الرأس من علامة الفراق، والمقصود بالصلاة: الوصلة والوفاق كما أفاده بعض الأعاظم(١) رحمهم الله؛ لانتقاضه بالرجل، حيث إنّ وضع التراب عليه ليس علامةً للفراق، ولم يكلّف في التيمّم، مع أنّ أصل المقال غير خالٍ عن الخيال؛ لعدم الدليل العقليّ أو النقليّ المعتبر على كون وضع التراب على الرأس أمارةً للفراق.

ولمّا اعتبر في الصلاة الجمع بين طهارة الظاهر ونزاهة الضمير حكم بأنّه لا تجوز الصلاة حتّى يطهر خمسٌ بالماء، والقلب بالتوبة(٢)، والمراد من التوبة: هو الرجوع الى الطاعة من المعصية، والى التولّي من التبرّئ، والى الحقّ في ماسواه، والى الوحدة من الكثرة و...

وممّا تقدّم يمكن لك كشف سرّ لزوم الطهارة عن الخبث، وإزالة النجاسة عن البدن والثوب والمسجد ونحو ذلك، وهكذا سرّ لزوم حلّيّة اللباس والمكان عن تعلّق حقّ الغير، إذ المخاطب بتأدية حقّ الغير مشغول الهمّ، وليس بفارغ البال حتّى يتكلّم ويناجي ربّه، فضلاً عن أن يناجيه ربّه.

كما أنّ بالتأمّل فيما مضى يمكن استكشاف سرّ الوقت واستقبال القبلة، وأنّ المعبود لاصباح عنده ولا مساءله، ولذا صلّى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ صلاة الظهر في المعراج، مع أنّه كان في الليل؛ لأنّه عقيب الإسراء الّذي كان في بضعةٍ من الليل، كما قال تعالى: «سُبحان الّذي أسرى بعبدهِ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حولَه»(٣). كما أنّ المعبود سبحانه أيضاً لا اختصاص له بجهةٍ دون جهةٍ، كما قال تعالى: «أينما تولّوا فثمَّ وجه الله»(٤).

(١) هو القاضي سعيد القمّي ـ رحمه الله ـ في أسرار العبادات ص٢١ طبع الجامعة.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢٦.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) البقرة: ١١٥.

وحيث إنّ المجال ضيّق، والبال ليس بفارغٍ، والصداع ليس بفارقٍ، فليعذرني إخواني السالكون عن البسط الى القبض، وعن الشرح الى المتن، وعن التفصيل إلى الإجمال، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

فتبيّن في هذه الفاتحة أُمورٌ:

الأوّل: أنّ للطهارة سرّاً وحكمةً وأدباً، وكلّ واحدٍ منها يمتاز عن غيره، ولكلٍّ منها درجات، ولا ينال بدرجةٍ خاصّةٍ من السرّ إلّا بما هو معادلٌ للحكمة والأدب، وهكذا ...

الثاني: أنّ الطهارة تتمثّل بصُور الملائكة العلميّة أو العمليّة ذَوات تقديسٍ وتسبيحٍ وتكبير.

الثالث: أنّ الطهارة يُكتبُ عليها وتوضع تحت العرش.

الرابع: أنّ الطهارة قد تنزّلت من فعل آدم -عليه السَّلام- في الجنّة وتطهّره من تلك الخطيئة.

الخامس: أنّ الذنب ناقضٌ للوضوء وناقص للطهارة باطناً وإن لم يكن كذلك ظاهراً في صناعة الفقه.

السادس: أنّ كيفيّة الوضوء وتحصيل الطهارة به قد قرّرت في المعراج.

السابع: أنّ الإخلاص المحض هو أن لايشاهد الإنسان المخلص غير الله سبحانه، وهذا هو كمال التوحيد كما قال أمير الموحّدين عليه السَّلام «... وكمال توحيده الإخلاص له» أي: إخلاص الوجود كلّه له «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه...»[١] أي: نفي الصفات الزائدة عنه تعالى.

الثامن: أنّ الأمر في الطهارة الترابيّة كالمائيّة سرّاً وحكمةً وأدباً.

وإذ قد انكشف لك بعض أسرار شطرٍ من مقدّمات الصلاة في الفاتحة حان إنجاز الوعد في بيان بعض أسرار نفس الصلاة في صِلاتٍ كافلةٍ لنبذٍ من بطونها

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة «١».

وحكمها وآدابها، بعد التنبّه بأنّ الأصل هو السرّ، وأنّ الحكمة والأدب من الفروع الّتي ينال بها الأصل وهو السرّ.

وليعلم: أنّ تبيين الأسرار الكونيّة وإن كان صَعباً ولكنّه ليس بمستصعبٍ، حيث إنّ كلّ واحدٍ منها أمر تكوينيّ، وإرجاع الأُمور الحقيقيّة بعضها إلى بعضٍ نزولاً أو صعوداً، وجعل بعضها سرّاً لبعضٍ ليس فيه كثير غموضٍ، وأنّ النيل والوصول إلى ذلك مستصعب، إنّما الكلام في تبيين الأسرار الاعتباريّة، بأن يُبيّن ما هو السرّ للأمر الاعتباريّ، إذ الاعتباريّ لا مجال له في سوق التكوين، كما أنّ الأمر التكوينيّ أجلّ من أن يجعل في مساق الاعتبار، مع أنّ الأُمور العباديّة اعتباريّة لها أسرار تكوينيّة.

والّذي يعالج به هذا العويص هو: أنّ الإنسان جامع للتكوين والاعتبار، حيث إنّه موجود تكوينيّ وله قوىً وشؤون حقيقيّة، وله أيضاً قدرة الاعتبار، بل يعيش ويحيى في غير واحدٍ من مناطق الاعتبار، فلو أُريد الجمع بين الحقيقة والاعتبار فالإنسان نِعمَ المجمع، كما أنّه نِعمَ الجامع. فلو أُريد تنزّل الأمر الحقيقيّ الى الاعتبار أمكن أن يكون ذلك في حيطة الإنسان، كما أنّه لو أُريد تصعّد الاعتبار الى الحقيقة تيسّر ذلك في منطقة الإنسان، والغرض: أنّ الإنسان سورٌ باطنه التكوين وظاهره التشريع.

وليُتنبّه بأنّ الأمر الاعتباريّ ـ كالطهارة، والصلاة ونحو ذلك ـ ممّا له حكم فقهيّ ليس بعَرضٍ، كما أنّه ليس بجوهرٍ؛ لأنّ ذلك كلّه من أحكام الموجود الحقيقيّ، والأمر الاعتباريّ ليس بموجودٍ حقيقيّ فلا يوصف بالعرضيّة والجوهريّة. ولا مجال للقول بأنّ العَرض في الدنيا يصير جوهراً في الآخرة، وأنّ الأعمال الاختياريّة من الطاعات والمعاصي أعراض في الدنيا وجواهر في الآخرة، إذ العناوين الاعتباريّة الّتي توصف بالطاعة أو العصيان ليست بموجودٍ حقيقيّ.

وأمّا الحركات الخارجيّة: من القيام والقعود ونحو ذلك فما لم يطرأ على شيء منها عنوان اعتباريّ لا توصف بالطاعة أو المعصية.

والحاصل: أنّ الموجود الحقيقيّ وإن يوصف بالعرضيّة أو الجوهريّة ولكنّه ليس بطاعة ولا عصيانٍ، والموجود الاعتباريّ الموصوف بشيءٍ منهما لايوصف بالعرضيّة ولا بالجوهريّة، فعليه لا مجال للقول بنسبيّة العرضيّة والجوهريّة.

نعم، يمكن أن يكون الشيء الواحد جوهراً بالحمل الأوّليّ، وعرضاً بالحمل الشائع كما قيل في حلّ صعوبة الوجود الذهنيّ. كما أنّه يمكن أن يصير الوجود العرضيّ من شؤون الجوهر بالحركة الجوهريّة، فيصير الحال ملكةً، ثمّ تصير الملكة فصلاً مقوّماً جوهرياً كما قرّر في موطنه، ولكن لامساس لشيءٍ من ذلك بكون الطاعة أو المعصية عرضاً في الدنيا وجوهراً في الآخرة. والغرض: أنّ الوصف النفسانيّ يمكن أن يكون عرضاً في نشأةٍ وجوهراً في نشأةٍ أُخرى، ولكنّ العمل الاعتباريّ خارج عن المقال.

وليلفت النظر إلى أنّ السرّ أمر نسبيّ لا نفسيّ، يعني: أنّ السرّ لا يكون سرّاً مطلقاً حتّى بلحاظ نفسه، كما أنّ الغيب أيضاً كذلك، إذ الغيب المطلق وكذا السرّ المطلق الّذي هو الله سبحانه لا يكون غيباً ولا سرّاً لنفسه وإن كانت ذاته سرّاً لصفاته، وأُمّ الأسماء سرّاً لسائرها، والأسماء الذاتيّة سرّاً للفعليّة منها...، وهذه النكتة ينبغي أن تذكر في المدخل.

فإذا تقرّر لديك أنّ سرّ الصلاة كغيرها من العبادات كان موجوداً في القوس النزوليّ، وسيتمثّل تكويناً في القوس الصعوديّ، وإنّما لها من الوجود الاعتباريّ المحفوف بالتكوينين في نشأة الاعتبار، وتبيّن أنّ السرّ لايختصّ بنفس الصلاة، بل يعمّ مقدّماتها ومؤخّراتها، وقد مضى نبذ ممّا يرجع الى مقدّماتها، فلنأخذ في أسرارها من الافتتاح إلى الاختتام في طيّ صلاتٍ عديدةٍ بعونه تعالى.

الصلة الأُولى
في أسرار التكبيرات الافتتاحيّة

وليعلم: أنّ صورة الصلاة واحدة يشترك فيها المصلّون، ولكنّ سيرتها وسرّها متفاوت، ولذا يتفاوت المصلّون، كما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنّ الرجلين من أُمّتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وأنّ مابين صلاتيهما مثل مابين السماء والأرض»(١)، والمهمّ هو: التفاوت في أدب الصلاة المتفرّع على حكمتها المعادلة لسرّها. وحيث إنّ الصلاة بما لها من الآداب قد شُرِّعتْ في المعراج وكان السرّ هنالك متجلّياً فعند الالتفات الى ما في المعراج يتبيّن غير واحدٍ من أسرارها.

وقد روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر-عليهما السَّلام- علّة للتكبيرات الافتتاحيّة، وهي: «أنّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- لمّا أُسري به الى السماء قطع سبعة حجبٍ، فكبّر عند كلّ حجابٍ تكبيرةً فأوصله الله -عزَّوجلّ- بذلك إلى منتهى الكرامة»(٢). وليُعلم: أنّ الحجاب قد يكون مُظلماً، وقد يكون نورانيّاً، والحجاب المظلم هو الموجود المادّيّ وما يتعلّق به، والحجاب النوريّ هو الموجود النوريّ الّذي له نور قاهر مانع عن إدراكه أو إدراك ماوراءه، والسالك إذا ارتفع عن المادّة وشؤونها وتعالى عن الموجود النوريّ القاهر تيسّر له إدراك ذلك الحجاب ونيل

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٣١، عن عوالي الآلئ.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٥٩، عن من لايحضره الفقيه.

ماوراءه، وهذا هو معنى خرق الحجاب؛ لأنّ خرق كلّ حجابٍ بحسبه.

وحيث إنّ المعراج كان في ساحة النور وقرب الجوار فلا حجاب هناك إلّا الحجاب النوريّ، ولا يخرق الحجاب النوريّ إلّا بالنور المُسيطر، ولمّا كان النور الحاجب هنالك أمراً موجوداً تكوينيّاً فلابدّ وأن يكون خارقه أيضاً أمراً موجوداً تكوينيّاً لا تَناله يد الجعل الاعتباريّ.

ولـمّا كان التكبير هنالك خارقاً للحجاب النوريّ فله ـ أي: للتكبير ـ حقيقة عينيّة تَقهر مادونها، وحيث إنّ تلك الحجب كانت سبعةً، وكانت طوليّةً لا عرضيّةً، وكلّما انخرق حجاب حصل قرب لم يكن حاصلاً قبله، فبينَ تلك التكبيرات السبع الخارقة أيضاً مَيزْ طوليّ لا عرضيّ، فكلّما كبّر المصلّي تكبيرةً يقرب إلى مولاه في المناجاة قرباً لم يكن حاصلاً قبله، فدرجات القرب أيضاً طوليّة.

ولمّا كان الحجاب موجوداً خارجيّاً، وخرقه أيضاً موجوداً عينيّاً، وقد تبيّن أنّ النظام العينيّ هو النظام العلّيّ والمعلوليّ، وقد استقرّ في موطنه أنّ العلّة لابدّ وأن تكون أقوى من معلولها فعليه لا يمكن أن يؤثّر التلفّظ بالتكبير الّذي يكون أمراً اعتباريّاً، أو يؤثّر تصوّره الّذي هو الوجود الذهنيّ له في موجودٍ خارجيّ عالٍ، بل المؤثّر فيه هو سرّ التكبير الّذي هو موجود عينيّ وتكوينيّ، ولا يُنال ذلك السرّ إلّا بأدب الصلاة الحاصل بحضور القلب المستتبع لخضوع الجوانح وخشوع الجوارح.

وليس ما ورد في المعراج مختصّاً بتلك الحال أو مخصوصاً بالرسول صلّى الله عليه وآله، بل يعمّ غير تلك الحال أيضاً، كما يعمّ غير الرسول صلّى الله عليه وآله، وذلك لِـمَا روى جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: كنت مع مولانا أمير المؤمنين عليه السَّلام، فرأى رجلاً قائماً يصلّي، فقال له: ياهذا، أتعرف تأويل الصلاة؟ فقال: يامولاي، وهل للصلاة تأويل غير العبادة؟ فقال: إي والّذي بعث محمَّداً بالنبوّة، مابعث الله نبيّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ بأمرٍ من الأُمور إلّا وله تشابه وتأويل وتنزيل، وكلّ ذلك يدلّ على التعبّد، فقال له: علّمني ما هو يا مولاي؟ فقال: تأويل تكبيرتك الأُولى الى إحرامك: أن تخطر في نفسك إذا قلت: الله أكبر من أن

يوصف بقيامٍ أو قعود، وفي الثانية أن يوصف بحركةٍ أو جمود، وفي الثالثة أن يوصف بجسمٍ أو يشبّه بشبهٍ أو يقاس بقياس، وتخطر في الرابعة أن تحلّه الأعراض أو تؤلمه الأمراض، وتخطر في الخامسة أن يوصف بجوهرٍ أو بعرضٍ، أو يحلّ شيئاً أو يحلّ فيه شيء، وتخطر في السادسة أن يجوز عليه مايجوز على المحدثين من الزوال والانتقال والتغيّر من حالٍ الى حال، وتخطر في السابعة أن تحلّه الحواس الخمس. ثمّ تأويل مدّ عنقك في الركوع: تخطر في نفسك: آمنت بك ولو ضربت عنقي. ثمّ تأويل رفع رأسك من الركوع إذا قلت: سمع الله لمن حمده الحمد لله ربّ العالمين تأويله: الّذي أخرجني من العدم الى الوجود، وتأويل السجدة الأُولى: أن تخطر في نفسك وأنت ساجدٌ: منها خلقتني، ورفع رأسك تأويله: ومنها أخرجتني، والسجدة الثانية: وفيها تعيدني، ورفع رأسك تخطر بقلبك: ومنها تخرجني تارةً أُخرى، وتأويل قعودك على جانبك الأيسر ورفع رجلك اليمنى وطرحك على اليسرى تخطر بقلبك: اللهمّ إنّي أقمت الحقّ وأمتُّ الباطلَ، وتأويل تشهّدك: تجديد الإيمان ومعاودة الإسلام، والإقرار بالبعث بعد الموت، وتأويل قراءة التحيّات: تمجيدات الربّ سبحانه وتعظيمه عمّا قال الظالمون ونَعتَه الملحدون، وتأويل قولك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ترحّم عن الله سبحانه، فمعناها هذه: أمان لكم من عذاب يوم القيامة. ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «من لم يعلم تأويل صلاته هكذا فهي خداجٌ»[1]، أي: ناقصةٌ.

فقه الحديث: بأنّ الأوصاف الجماليّة لله عين الأوصاف الجلالية لله، إذ التكبير وإن كان من الأوصاف الثبوتيّة الجماليّة ولكن أوْلِها الى الوصف السلبيّ الجلاليّ كالعكس؛ لأنّ معنى التكبير: هو تنزيه الله عن أوصاف الممكن. ولا مِريَة في أنّ الأوصاف الإلهيّة أمر تكوينيّ خارجيّ، وتلك الأوصاف الّتي قد عبّر بأنّها تأويلات للتكبيرات السبع قد تجلّت وتنزّلت بصُور تلك التكبيرات الافتتاحيّة،

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٦١.

فسرّها وتأويلها أمر حقيقيّ لا اعتباريّ، وعلى المصلّي أن يتأدّب بآداب الصلاة بعد معرفة حكمتها وهدفها السامي حتّى ينال ذلك التأويل، تنبّهاً بأنّ تعدّد تلك التكبيرات ليس من باب التأكيد، بل كلّ منها يفيد معنىً خاصّاً غير مايفيده الآخر، كما أنّ تعدّد كلمة «وحده وحده وحده» ليس للتأكيد، بل كلّ واحدٍ منها ناظر إلى مرتبةٍ خاصّةٍ من التوحيد الذاتيّ والوصفيّ والفعليّ. وأما سائر مااشتمل عليه هذا الحديث من أسرار الركوع والسجود و... فسيأتي البحث عنه في موطنه الخاصّ.

والغرض: أنّ للتكبيرات الافتتاحية أسراراً، وأنّ تلك الأسرار قد تحقّقت في المعراج، وأنّها قد تجلّت وتنزّلت الى عالم التشريع والاعتبار، وأنّها لا تختصّ برسول الله صلّى الله عليه وآله، بل تعمّ كلّ مكلّفٍ يصلّي، وأنّ صلاة من لم يعلم تأويل تلك التكبيرات ناقصة.

ثمّ إنّه قد ورد للتكبيرات السبع الافتتاحيّة أيضاً أسباب وجهات مُلكيّة لا تنافي ماتقدّم من الأسرار الملكوتيّة؛ لأنّها في طولها لا في عرضها، وذلك الأمر المُلكيّ بأنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان في الصلاة والىٰ جانبه الحسين ابن عليّ عليهما السّلام، فكبّر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلم يُحِر الحسين التكبير، ثمّ كبّر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلم يُحِر الحسين ـ عليه السلام ـ التكبير، ثم كبّر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلم يُحِر الحسين ـ عليه السلام ـ التكبير، ولم يزل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يكبّر ويعالج الحسين ـ عليه السلام ـ التكبير فلم يُحِر حتّى أكملَ ـ صلّى الله عليه وآله ـ سبع تكبيراتٍ، فأحار الحسين ـ عليه السلام ـ التكبير في السابعة، فقال أبو عبدالله: فصارت سنّة[1].

والشاهد على عدم المنافاة هو: أنّ المعراج كان بمكّة قبل ميلاد الحسين بن عليٍّ عليهما السّلام، وما نقل من قصّة الحسين ـ عليه السلام ـ متأخّر عمّا وقع في المعراج

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٥٨، عن العلل والتهذيب.

وجوداً، وكذا متأخّر عنه زماناً، وليس في عرضه وجوداً ولا زماناً، فعند عدم الاتّحاد الوجوديّ ولا الزمانيّ فلا تناقض؛ لإمكان الاجتماع وصدق كلا الأمرين.

وهكذا لا ينافي ما ورد في السبب التشريعيّ للتكبيرات الافتتاحيّة، وذلك الأمر التشريعيّ هو: أنّه ذكر الفضل بن شاذان عن الرضا ـ عليه السلام ـ علّةً أخرى، وهي: أنّه إنّما صارت التكبيرات في أوّل الصلاة سبعاً؛ لأنّ أصل الصلاة ركعتان، واستفتاحها بسبع تكبيرات: تكبيرة الافتتاح، وتكبيرة الركوع، وتكبيرتي السجدتين، وتكبيرة الركوع في الثانية، وتكبيرتي السجدتين، فإذا كبّر الإنسان في أوّل صلاته سبع تكبيرات، ثمّ نسي شيئاً من تكبيرات الافتتاح من بعد أو سها عنها لم يدخل نقصٌ في صلاته[1].

والدليل على عدم التنافي هو: أنّ أحد السببين تكوينيّ سابق في المعراج، والآخر تشريعيّ لاحق التنزّل في عالم الاعتبار، ولا غروَ في استناد كلٍّ منهما الى ما له من المبادئ الخاصّة، وأنّ المبدأ الأصيل في ذلك هو: التكوين المتحقّق في المعراج لخرق الحجب النوريّة السبعة.

وحيث إنّ الأساس هو التوحيد، واللازم هو خرق الحجب المانعة عن شهوده، والتكبير سبب قويّ في خرقها لذا يبتدأ الأذان وكذا الإقامة بالتكبير، ويختتمان بالتوحيد، وبالتأمّل في تأثير التكبير يظهر سرّ تعدّده في بدء الأذان، وكذا الإقامة، ولعلّ سرّ تعدّد التوحيد في ختم الأذان ووحدته في ختام الإقامة هو البلوغ الى أقصى مراتب التوحيد الّذي لا مجال للتعدّد هنالك؛ لانطواء الأسماء الأفعاليّة في الأسماء الصفاتيّة، وانقهار الأسماء الصفاتيّة في الهويّة البحتة، فتدبّره.

فتبيّن في هذه الصلة أُمور:

الأوّل: أنّ روح التكبير هو التسبيح؛ لأنّ معناه هو: أنّ الله أجلّ من أن يُحسّ أو يُتخيّل أو يُتوهّم أو يُعقل، إذ ليس جسماً، ولا جسمانيّاً، ولا صورةً جزئيّةً، ولا

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٥٩، عن العلل.

معنىً جزئيّاً، ولا مفهوماً كلّيّاً. وكذا أجلّ من أن يشاهد كنهه، إذ الأزليّ الأبديّ السرمديّ أعلى من أن يكتنهه أحد، فهو تعالى أجلّ من أن يُعرَف كنهه، فلذا يكون عرفانه مصحوباً بالاعتراف بعدم الاكتناه؛ لأنّ الله تعالى وإن لم يحجب العقول عن واجب معرفته ولكنّه لم يُطلعها على تحديد صفته، كما أفاده سيّد الموحّدين عليٌّ بن أبي طالبٍ عليه السلام(١).

الثاني: أنّ الحجاب ظلمانيّ ونورانيّ.

الثالث: أنّ سرّ التكبير هو خرق الحجاب.

الرابع: أنّ سرّ تعدّده سبعاً هو كون الحجب سبعة.

الخامس: أنّ السبب المُلكيّ لتعدّد التكبير لا ينافي السرّ الملكوتيّ له، كما أنّ السبب التشريعيّ له لا ينافي السرّ التكوينيّ له.

السادس: أنّ ذلك السرّ قد تحقّق في المعراج بمعنى أنّه ليس الكلام في أنّ للتكبير تأثيراً في رفع الحجاب فقط، بل في أنّ الحجاب قد انخرق خارجاً بتكبير رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في المعراج.

السابع: أنّ ذلك السرّ لا يختصّ بالمعراج، ولا برسول الله صلّى الله عليه وآله، بل يعمّ غير المعراج، ويشمل غير الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أيضاً بحيث تكون صلاة من لم يعلم ذلك السرّ ولم ينله ناقصة، ومن هنا يظهر كون «الصلاة معراج المؤمن»، فكلّ من صلّى كصلاة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقد عُرج به، كما أنّ كلّ من توضّأ مثل وضوء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقال مثل قوله ـ عليه السلام ـ حال الغَسل والمَسح المعهودين في الوضوء يخلق الله تعالى بكلّ قطرةٍ من وضوئه ملكاً يقدّسه ويسبّحه ويكبّره و...

الثامن: أنّ الأذان وكذا الإقامة مَبدُوءٌ بالتكبير ومَختومٌ بالتوحيد، وقد كُرِّر في كلٍّ واحدٍ منهما التكبير لخرق أيّ حجابٍ فرض.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة «٤٩»: «لم يُطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته».

التاسع: أنّ الرافع للحجاب النوريّ هو باطن التكبير وسرّه الّذي يكون أمراً تكوينيّاً لا اعتباريّاً، وإلّا أمكن صدوره من كلّ من أراده من المَلَك والإنسان، مع أنّه لم يكن في وسع بعض الملائكة الكرام، فضلاً عن الإنسان العاديّ، وإلّا لارتفع جبرئيل -عليه السلام- الى ما ارتفع به الرسول صلّى الله عليه وآله، كما أنّ الوضوء أيضاً كان كذلك، حيث ورد في المعراج: «... ثمّ امسح رأسك ...، فإنّي أُوطئك موطئاً لم يطأه أحد غيرك ...؛ لظهور تمشّي الوضوء الاعتباريّ من أيّ إنسان مُتوضّئ مُصلٍّ.

العاشر: أنّ اللازم قبل الصلاة هو انخراق الحجاب بتمامه، وهو لا ينخرق إلّا بعدم شهود الإنسان المريد للمناجاة مع السرّ أحداً سواه حتّى نفسه، وشهوده، وهناك أسرار مطويّة تتبيّن لِمَن تأمّل بعض ما في الباب من النصوص. وما ورد في شأن المتّقين من أنّه: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر مادونه في أعينهم»[1] فهو وإن يوجب تعظيم الله تعالى وتكبيره لكنّ التكبير هناك من أوصاف الجمال، حيث إنّهم رأوا أنّ غير الله تعالى موجود، ولكنّه صغيرٌ، والله تعالى موجود عظيم وكبير، وأين هو من التكبير الّذي مَغزاه التسبيح كما تقدّم والشاهد على أنّ هذا المقام ليس هو البالغ شأو السرّ: هو أنّ هؤلاء المتّقين لم يبلغوا بَعدُ مقام الشهود التامّ، بل كانوا في مقام الإحسان لا اليقين، حيث قال -عليه السلام- في شأنهم: «فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون»[2]، يعني: أنّهم كانوا في مقام «كأنّ» لا في مقام «أنّ».

وأمّا من يعظّم غير الله ويكبّره في نفسه فهو ممّن لا يَتمشّى منه التكبير الحقيقيّ وإن يتلفّظ به في الصلاة أو غيرها.

---

(١) و (٢) نهج البلاغة: الخطبة «١٩٣».

الصلة الثانية

في سرّ النيّة

والمراد من النيّة هنا ليس هو قصد العنوان: كصلاة الظهر أو العصر في الأمر العباديّ، وكأداء الدّين أو الهبة في الأمر المعامليّ. كما أنّه ليس المراد منها هو قصد الوجه: كالوجوب أو الندب، بل المراد منها هنا: هو خصوص قصد القربة من الله سبحانه؛ لأنّ هذا القصد هو المدار في البحث العرفانيّ والكلاميّ والخلقيّ الناظر حول صلاح القلب وفلاحه. وقد ورد في شأنها والاهتمام بها نصوص كثيرة من الآيات والاحاديث، نحو قوله تعالى: «لا تُبطلوا صدقاتِكُم بالمَنّ والأذىٰ كالّذي يُنفِقُ مالَه رئاء الناس»[1] وقوله تعالى: «مَثلُ الّذينَ يُنفِقُونَ أموالَهم ابتغاء مَرْضَات الله وتثبيتاً من أنفسهم كَمثَلِ جَنَّةٍ بِرَبوةٍ أصابَها وابلٌ...»[2] وقوله تعالى: «قُل إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَمَاتي لله ربِّ العالمين ۝ لاشريك له وبذلك أُمِرْتُ وأَنا أوّلُ المسلمين»[3].

ونحو ما روي عن أهل البيت عليهم السَّلام: عن عليّ بن أبي طالب ـ عليه السَّلام ـ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لا عمل إلّا بنيّة، ولا عبادة إلّا بيقين، ولا كرم إلّا بالتقوىٰ»[4]. وبهذا المضمون روايات أُخر لا احتياج

---

(١) و (٢) البقرة: ٢٦٤ و ٢٦٥.

(٣) الأنعام: ١٦٢ و١٦٣.

(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٣٥٧.

إلى نقلها؛ لكثرتها ومعروفيّتها، ولا نصيب للعامل إلّا بنيّته ومقدارها وكيفيّتها.

والشاهد عليه ما روي عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله- أنّه قال: «إنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئٍ مانوى، فمن غزا ابتغاء ما عندالله فقد وقع أجره على الله، ومن غزا يريد عَرَض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلّا مانوى»(١). وفي وصيّة رسول الله -صلّى الله عليه وآله- لأبي ذرّ: «وليكن لك في كلّ شيءٍ نيّة، حتّى في النوم والأكل»(٢).

فالنيّة بمعنى: قصد التقرّب من الله سبحانه هي روح العمل الّذي بها يحيى وبدونها يموت، ولا أثر للميّت، وبها تصحّ العبادة، وبدونها تبطل. وحيث إنّ للنيّة درجات فللصحّة مراتب وإن كانت مشتركةً في أصل الامتثال، وسقوط الإعادة أو القضاء ولكن لكلٍّ من تلك المراتب ثواب يختصّ بها، وقرب يحصل منها، ولا يحصل ذلك الثواب أو القرب بدونها.

وحيث إنّ المواقف الهامّة يوم القيامة ثلاثة: من النار، والجنّة، والرضوان -كما أشار إليه قوله تعالى: «وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان»(٣)، وأنّ الشؤون العمليّة الرئيسيّة للنفس الإنسانيّة ثلاثة أيضاً: من الغضب الدافع للمنافي، والشهوة الجاذبة للملائم، والعقل العمليّ الشائق للكمال التامّ المجرّد المعقول- فلذا صارت العبادة ثلاثة أقسام، وصار العبّاد ثلاثة(٤)، حيث إنّ قوماً يعبدون الله سبحانه خوفاً من النار وتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً يعبدونه تعالى شوقاً الى الجنّة وتلك عبادة الحُرصاء، وإنّ قوماً يعبدونه تعالى حبّاً له تعالى وتلك عبادة الأحرار الكرام.

وكلّ واحدةٍ من هذه العبادات الثلاثة صحيحة وإن كانت للصحّة مراتب في الثواب حسبما أُشير إليه؛ لأنّ كلّ واحدة منها لله تعالى لا لغيره محضاً، ولا له ولغيره

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٣٥٨.

(٢) المصدرنفسه: ص٣٥٩.

(٣) الحديد: ٢٠.

(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٣٧٣.

من النجاة من النار، أو الالتذاذ بالجنّة بالشركة، والامتياز بينها بأنّ الخائف لا يعبد إلّا الله، وحيث إنّه لم يتحرّر عن رقّيّة الغضب لا يعرف أن يطلب من معبوده شيئاً عدا النجاة من النار، وكذا المشتهي لايعبد إلّا الله، ولمّا لم يتحرّر عن قيد الشهوة لا يفهم أن يتمنّى من مولاه المعبود شيئاً وراء الفوز بالجنّة. وأمّا العاقل الشائق لرضا مولاه فهو حُرٌّ يعرف ما يريد.

والدليل على صحّة عبادة القسم الأوّل وكذا الثاني هو: أنّ النصّ قد عبّر عن فعل هؤلاء بالعبادة، وعنهم بالعبّاد، وأنّهم عبدوا الله، وأنّ عبادة القسم الثالث ـأي: عبادة الأحرار- أفضل العبادات، فلو لم تكن عبادة غير الأحرار صحيحةً وفاضلةً لم تكن عبادة الأحرار أفضل؛ ولا شاهد هنا على أنّ لفظ الأفضل للتعيّن لا للترجّح.

والحكماء الأحرار الّذين تأسّوا بمواليهم المعصومين ـعليهم السّلام- في العبادة ولم يتحرّوا من عبادتهم سوىٰ رضا الله تعالى قد حكموا بصحّة عبادة مَن لايريد في عبادته من الله شيئاً سوىٰ رضوانه: كالنجاة من النار، كما قال الشيخ الرئيس قدّس سرّه: (والمستحلّ توسيط الحقّ مرحوم)[١]، ولم يقل بأنّه محروم.

وأشار سيّدنا الأُستاذ العلّامة الطباطبائي ـقدّس سرّه- في رسالة الولاية الى قبول عبادة هؤلاء بالتفضّل الإلهيّ وإنْ قصّر هؤلاء في المعرفة والقربة.

ولو كان قصد شيءٍ سوى الله مبطلاً للعبادة لكانت عبادة من قصد الشكر وتحصيل الرضا والمحبّة أيضاً باطلة؛ لأنّ ذلك كلّه خارج عن الهويّة المطلقة الواجبيّة. فالحقّ هو ما أفاده الشيخ البهائيّ ـقدّس سرّه- في الأربعين[٢] من صحّة عبادة هؤلاء.

وقال العَلَم والحجّة، الحاج الميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ قدّس سرّه: إنّ

---

(١) الإشارات والتنبيهات: النمط التاسع.

(٢) حديث ٣٧ ص٢٢٥ ـ ٢٢٨.

القول ببطلان العبادة من جهة خوف العقاب أو طمع الجنّة وإن صدر عن بعض الأجلّة ولكنّه صادر عن الغفلة، ولا غَروَ في وقوع أمثال هذه الغفلات والعثرات من الأجلّة والأعيان، لحكمةٍ إلهيّةٍ في ابتلائهم بأمثاله[١].

أقول: لعلّ المراد من بعض الأجلّة هو: رضي الدين عليّ بن طاووس ـ قدّس سرّه ـ حسبما نقل الشيخ البهائيّ ـ قدّس سرّه ـ عنه في الأربعين[٢].

والحاصل: أنّ نيّة هؤلاء خالصة غير مشوبةٍ، وأنّهم يعبدون الله تعالى ولا يعبدون غيره أصلاً، لا بالاستقلال، ولا بالمشاركة، ولا بالمظاهرة، ولكنّهم لقصور معرفتهم لايدرون ما يطلبون من معبودهم، أعلى من انفكاكٍ عن النار أو الفوز بالجنّة، وكم فرق بين هذا الأمر وبين أنّه لولا الخوف أو الفوز لم تكن هناك عبادة أصلاً؛ لخروجه عن الكلام رأساً!

وما قال بحر العلوم ـ قدّس سرّه ـ في درّته النجفيّة:

وكلّ ماضُمَّ الى التقرُّبِ   من غاية يُبطلُهُ في الأقربِ

فالمراد من الضميمة هناك: ما هو المبحوث عنه في الفقه: كالتبرّد ونحوه في الوضوء، لا ما هو المُعنون هنا، ولقد تفطّن الجامع بين الفقهين النراقيّ ـ قدّس سرّه ـ في الفتوىٰ بصحّة العبادة المقصود بها النجاة من النار، أو الفوز بالجنة، وتزييف أدلّة القائلين بالبطلان، فراجع المستند[٣].

قد تخلّل بعض المباحث الكلاميّة أو الفقهيّة في الأثناء، وهو خارج عن مقصد الرسالة الباحثة عن سرّ الصلاة، والغرض: أنّ النيّة بمعنى قصد القربة: روح العمل وقلبه، وأفضل من العمل؛ لأنّ حياته بها، كما يُستفاد ممّا رواه الكلينيّ ـ رحمه الله ـ بإسناده، عن سفيان بن عيينة، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله عزّوجلّ: «ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً» قال: ليس يعني: أكثركم عملاً، ولكن

---

(١) المراقبات: ص ٩٨.

(٢) ص ٢٢٦.

(٣) مستند الشيعة: ج١ ص ٧٧.

أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله عزّوجلّ، والنيّة الصادقة والحسنة، ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّوجلّ، والنيّة أفضل، ألا وإنّ النيّة هي العمل، ثمّ تلا قوله تعالى: «كلٌّ يعمل على شاكلتهِ» يعني: على نيّته[1] . ومن هنا يظهر الجمع بين الأصل الحاكم بأنّ: «أفضل الأعمال أحمزها»[2]، وبين الأصل الحاكم بأنّ: «نيّة المؤمن خير من عمله»؛ لأنّ النيّة حيث كانت روح العمل ولبّه ومَغزاه كانت أفضل منه، كما أنّها لابدّ وأن تكون خالصةً، إذ الرياء المتمشّى في العمل لا يتطرّق إليه إلّا من طريق النيّة فحسب، وتحصيل الإخلاص في النيّة أحمز وأصعب، لذا تكون أفضل من العمل.

وأمّا سِرّ كون نيّة الكافر شرّاً من عمله فلأنّ النيّة هي الأصل كما مرّ، والأصل الّذي به يتقوّم الفرع وعليه يتّكئ الغُصن، وإليه يرجع ماعداه أهمّ، سواء في طرف الخير أو الشرّ.

والنيّة لمّا كانت أمراً قلبيّاً لا يطّلع الناس عليها لايتطرّق إليها الرياء والسمعة ونحو ذلك؛ لخروجها عن مرأى الناس ومسمعهم، والعمل لكونه مرئيّاً أو مسموعاً قابل لأن يتسرّب إليه الرياء، ولذا قد علّل في العلل حسبما رواه زيد الشحّام، عن أبي عبدالله ـعليه السّلام ـ كون «نيّة المؤمن خير من عمله»[3] بذلك، ولكنّ التأمّل فيما تقدّم يوضّح المراد، إذ الرياء لايسري إلى العمل إلّا من طريق النيّة، وهي ـأي: النيّة ـ لمّا كانت مستورةً عن أعين الناس وأسماعهم تنزّل بلباس العمل وتكتسيه، حتّى تصير مرئيّةً أو مسموعة.

ولمّا كان العقل العمليّ ـبما له من الشؤون والآثار: كالإرادة والإخلاص ونحو ذلك ـ نورٌ يُعبد به الرحمان ويكتسب به الجنان فإذا كان ذلك النور مضيئاً بلا انطفاءٍ ولا انخسافٍ حصل الإيمان والإخلاص، وإذا كان منخسفاً بطوع الهوى حصل

---

(١) و(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٣٦٠ و٣٦٦. (٢) مجمع البحرين: ج٤ ص١٦.

الكفر أو الرياء، كما يُستفاد ممّا رواه الكليني رحمه الله، عن أبي عبدالله -عليه السَّلام- أنّه قال: ليس بين الإيمان والكفر إلّا قلّة العقل، قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال عليه السَّلام: إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوقٍ فلو أخلص نيّته لله لآتاه الله الّذي يريد في أسرع من ذلك(١).

وقريب منه ما رواه البرقيّ، عن أبي جعفر -عليه السَّلام- أنّه قال: ما بين الحقّ والباطل إلّا قلّة العقل، قيل: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: إنّ العبد يعمل العمل الّذي هو لله رضاً فيريد به غير الله، فلو أنّه أخلص لله لجاءه الّذي يريد في أسرع من ذلك(٢).

ثمّ إنّ العقل النظريّ هو الفاروق بين الحقّ والباطل النظريّين، والعقل العمليّ هو المائز بين العمليّ منهما، فالمخلص عاقل، ومن ليس بعاقلٍ فليس بمخلصٍ فيرائي، كما أنّ العاقل ليس بمراءٍ، والمرائي ليس بعاقل.

والّذي يدور مداره الكلام هو: مارواه أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره، عن حذيفة ابن اليمان قال: سألت رسول الله -صلّى الله عليه وآله- عن الإخلاص؟ فقال: سألته عن جبرئيل؟ فقال: سألته عن الله تعالى؟ فقال: الإخلاص سرٌّ من سرّي أُودعه في قلب من أحْبَبْتُه(٣).

وذلك لأنّ العبد السالك إذا أحبَّ الله سبحانه يتّبع ما أنزل اليه بلسان حبيبه -أي: محبوبه- وهو الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، فإذا اتّبعه صار محبوباً لله تعالى، إذ اتّباع المحبوب يورث المحبوبيّة كما قال تعالى: «قُل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحبِبْكُمُ الله»(٤)، فإذا صار السالك الصالح محبوباً لله تعالى فيدرج تحت مواعيد القرب الولائيّ، حيث إنّ الله تعالى قد وَعد من تقرّب إليه بالنوافل وصار محبوباً له تعالى بأُمور لاينبغي الذهول عنها، نحو: كونه تعالى سمعاً للعبد المتقرّب به

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص٣٧٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٧٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٧٥.
(٤) آل عمران: ٣١.

يسمع، وبصراً له به يبصر، و...، ومن تلك المواعيد هو مايستفاد من حديث حُذيفة: من «أنّ الله تعالى يودع سرّه ـ الَّذي هو الإخلاص ـ في قلب محبوبه».

فالإخلاص الَّذي هو الأساس في النيّة سرّ ملكوتيّ لا يناله إلّا من أحبّه الله، ولا يحبّ الله أحداً إلّا من تقرّب إليه بالنوافل، وباتّباع آثار حبيبه رسول الله صلّى الله عليه وآله، المتقرّب إليه تعالى بالنوافل كلّها، والفرائض طرّها.

فللنيّة سرّ إلهيّ لايُنال إلّا بطيّ مراحل تكون النيّة في بعضها حالاً، وفي بعضها ملكةً الى أن تنتهي الى مرحلة الإخلاص الَّذي هو سرّ إلهيّ، وكما أنّ المحبّ لله إنّما يصير محبوباً إذا اتّبع حبيبه فكذلك المخلص ـ بالكسر ـ إنّما يصير مُخلصاً ـ بالفتح ـ إذا اتّبع من استخلصه الله لنفسه فصار مُخلصاً ـ بالفتح ـ محضاً، وللمخلص ـ بالفتح ـ أوصاف وأحكام ودرجات، لعلّ أعلاها ما هو المستفاد من قوله تعالى: «سبحانَ الله عمّا يصفون * إلّا عبادَ الله المخلَصين»[1]، حيث دَلّ على أنّه ليس لأحدٍ أن يصف الله سبحانه إلّا العبادالمخلصين، وأنّهم يعرفونه تعالى بما هو اللازم اللائق وإن لم يكتنهوه، وكفى بذلك ذخراً وشرفاً.

وليعلم: أنّ الدارج بين أبناء الظاهر من النيّة ما هو الإخطار بالبال، أي: الَّذي ليس له إلّا وجود ذهنيّ، وهو كما قيل: نيّة بالحمل الأوّليّ، وغفلة وذهول بالحمل الشائع الصناعيّ. وأمّا نفس العمل الخارجيّ فصادر عادةً لاعبادة، حيث إنّه لا أثر للوجود الذهنيّ، ولا بعث له، وإلّا لما تخلّله الشكّ والسهو، والزيادة والنقيصة، وما الى ذلك ممّا هو المبتلىٰ به للناس، بل المهمّ في النيّة هو: انبعاث الروح من العادة الى العبادة بحيث لا يقرأ ولا يركع ولا يسجد في الصلاة، وهكذا لايغسل ولا يمسح في الوضوء، و... إلّا ببعث ذلك الأمر القلبيّ، وهذا إنّما يتمشّىٰ من قلبٍ ليس فيه سوى الله، المعبّر عليه في لسان النصوص «بالقلب السليم» كما رواه الكليني ـ رحمه الله ـ ... قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: «إلّا من أتى الله

(١) الصافّات: ١٥٩ و ١٦٠.

بقلب سليم»؟ قال: القلب السليم: الَّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه، قال: وكلّ قلبٍ فيه شرك أو شكّ فهو ساقط، وإنّما أراد بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة[١]. والقطب الراونديّ في لبّ اللباب، عن النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ أنّه سئل، ما القلب السليم؟ فقال: «دين بلا شكٍّ وهوًى، وعمل بلا سُمعةٍ ورياء»[٢].

وإذا كان القلب وعاءً لعدّةٍ من الأهداف والأغراض الّتي يجمعها حبّ الدنيا فكيف يكون العمل الصادر عنه لله وحده؟ وحيث إنّ الإخلاص صَعبُ الوصول فقد أمر بالزهد ونحوه لا لنفسه، بل لحصول ذلك الهدف السامي. والإخلاص بالمعنى الَّذي هو سرّ من أسرار الله ليس أمراً ذهنيّاً حصوليّاً، بل هو أمر عينيّ حضوريّ، فعليه يكون مقاماً معلوماً لدى الله سبحانه لا يتخطّاه إلّا من ارتدى برداء المحبّة، أي: كان محبوباً لله بعد أن كان مُحبّاً لله تعالى. وقد تقدّم: أنّ بين عبادة العبيد وعبادة الطمعاء (التجّار) وبين عبادة المحبّين الأحرار فرقاً، فضلاً عن عبادة المحبوبين، سيّما إذا بلغوا ـ أي: المحبوبون ـ مرتبة المخلصين ـ بالكسر ـ الَّذين إذا جدّوا واجتهدوا وهاجروا من غير الله إليه تعالى يستخلصهم الله لنفسه، فيصيرون مُخلصين ـ بالفتح ـ، وهنالك تتبيّن روح النيّة وسرّها الّتي هي روح العمل وسرّه، فالعمل حيّ بالنيّة، وهي تحيى بسرّها الَّذي هو الإخلاص، الَّذي هو سرّ من أسراره تعالى المُودع في قلب من أحبّه تعالى ولم يحبّ سواه، سواء نفسه أو غيره.

وممّا يُنبّه على أنَّ النيّة هي روح العمل وأنّها أصل حاكم عليه هو ما قاله مولانا الصادق عليه السَّلام: «ما ضَعف بَدن عمّا قَويَت عليه النيّة»[٣]، لدلالته على أنَّ العمل البدنيّ تابع للقصد القلبيّ وجوداً وعدماً، وقوّةً وضعفاً، بحيث يدور العمل البدنيّ مدار النيّة في جميع ما أُشير إليه، حتّى أنّ البدن الضعيف يقدر على العمل إذا قويت النيّة، كما أنّ البدن القويّ يضعف عنه إذا ضعفت النيّة،

---

(١) و (٢) جامع أحاديث الشيعة: ج١ ص ٣٦١.

(٣) وسائل الشيعة: ج١ ص٣٨ ح١٤ باب٦.

فالإنسان بنيّته لا ببدنه، وهذا الحديث من غُرر الأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السَّلام، لتفسيره حدّ الإنسان بأنّه حيوان ناطق ناوٍ، إذ لولا النيّة الّتي هي السرّ المستودع لَمَا بلغ الإنسان نصابه اللازم، فهو بعد غير بالغ.

والشاهد الآخر على أصالة النيّة: أنّها اذا تحقّقت وقويت تكون الصلاة مناجاةً مع الله، ومعراجاً للمصلّي، وإذا ضعفت وذهل المصلّي عنها تفقد تلك الصلاة صبغة النجوى ويصير المصلّي مستحقّاً للويل، كما قال تعالى: «فويلٌ للمصلّين * الّذين هُم عن صلاتهم ساهون * الّذين هُم يُراؤُن * ويمنعون الماعون»[1].

إنّ المصلّي الناوي الّذي تكون نيّته خالصةً لا يكون جزوعاً ولا منوعاً، بل هو ممّن في ماله حقّ معلوم للسائل والمحروم[2]، والمصلّي الساهي الّذي تكون نيّته مشوبةً بالذهول يرائي ويمنع الماعون، وكم فرق بينهما، ومدار الفرق إنّما هو النيّة في الأوّل، والذهول عنها في الثاني، لا فعل الصلاة ظاهراً لاستوائها في الحالين، وسيوافيك تفصيله في الصلات القادمة.

فتبيّن في هذه الصلة أُمور:

الأوّل: الفرق بين النيّة بمعنى قصد القربة، وبين قصد العنوان.

الثاني: اهتمام الدين بالنيّة في الكتاب والسنّة.

الثالث: أصالة النيّة وتبعيّة العمل.

الرابع: تثليث النيّة حسب تثليث مواقف القيامة.

الخامس: صحّة عبادة الخائف والشائق كصحّة عبادة الشاكر والمحبّ.

السادس: الفرق بين البحث الكلاميّ والفقهيّ، وبين البحث العرفانيّ الناظر إلى سرّ الصلاة.

السابع: طريق الجمع بين أفضليّة أحمز الأعمال، وبين كون النيّة خيراً من العمل.

---

(١) الماعون: ٤ ـ ٧.

(٢) راجع سورة المعارج: ٢٠ ـ ٢٥.

الثامن: الفصل بين الإيمان والكفر إنّما هو قلّة العقل أو زواله.

التاسع: أنّ الإخلاص سرّ إلهيّ يُودعه الله في قلب محبوبه.

العاشر: ما هو الفرق بين المخلص -بالكسر- والمخلص -بالفتح-؟

الحادي عشر: الفرق بين ما هو النيّة بالحمل الأوّليّ، وما هو النيّة بالحمل الشائع.

الثاني عشر: ضعف البدن وقوّته تابع لضعف النيّة وقوّتها.

ثمّ إنّه ورد في أدعية الافتتاح، وكذا في اشتراط صحّة العبادة بالولاية، وهكذا التوسّل بالأولياء وتقديمهم أمام العبادة بأن يقال: «اللهمّ إنّي أتوجّه إليك بمحمَّدٍ وآل محمَّد، وأُقدِّمهم بين يدي صلاتي، وأتقرّب بهم إليك، فاجعلني بهم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين...»(١) مطالبُ هامّة يوجب التعرّض لها والبحث عنها والرجوع إليها، والخوض فيها الخروج عن طور هذه الرسالة، فلعلّ لها موطناً آخر.

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢ و١٧.

الصلة الثالثة

في سرّ القراءة

إنّ المعتبر في الصلاة الثنائيّة هو قراءة فاتحة الكتاب وسورة، وكذا المعتبر في الأُولتين من غيرها كالثلاثيّة والرباعيّة، وقد ورد أنّه: «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب»[1]، فقراءة شيء من القرآن في الصلاة على مادوّن في الفقه واجبة، والقراءة لها سرّ باعتبار أنّ المقروء له سرّ، فما لم يكن القارئ ذا سرٍّ فلا يصل هو إلى سرّ القراءة، ولا ينال أيضاً سرَّ المقروء، فتكون قراءته بتراء.

والشاهد على أنّ المقروء ـ أي: القرآن الكريم ـ له سرّ هو مابيّنه الله سبحانه بقوله: «إنَّا جَعلناهُ قُرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون * وإنّه في أُمِّ الكتاب لَدينا لَعليٌّ حَكيمٌ»[2] لدلالته على أنّ الموجود بين الدفّتين بما أنّه كتاب عربيّ فهو قرآن، وهو نفسه بما أنّه في أُمّ الكتاب أيضاً قرآن، وبما أنّه عليّ حكيم أيضاً قرآن، وهنالك ـ أي: أُمّ الكتاب، ولدى الله ـ لا مجال للاعتبار من وضع الألفاظ العربيّة أو العبريّة أو نحوهما، وليس لدى الله إلّا الأمر المجرّد التامّ العقليّ الّذي لاينالـه إلّا العقل المحض الخالص عن شوب الخيال والوهم، وكما أنّ ظاهر القرآن العربيّ لا يمسُّه إلّا الطاهر عن الحدث والخبث كذلك سرّه لا يمسُّه إلّا المنزّه عن الرين والدنس، وهو الالتفات الى غير المعبود، إذ الناظر إلى غيره لايقدر العروج إلى موطن اللدُن، وإذا لم يعرج إليه ليس في وسعه أن ينال أُمّ الكتاب العليّ الحكيم؛ لأنّه لدى الله تعالى.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١ ص١٩٦ ح٢ عن النبي (ص). (٢) الزخرف: ٣ و ٤.

وكما أنّ ظاهر القرآن العربيّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فكذلك سرّه الّذي هو العليّ الحكيم منزّه عن تسرّب الباطل عن أيّة جهةٍ وسمتٍ أبداً، ومَن كان في قلبه مثقال ذرةٍ من حبِّ الدنيا الّذي هو رأس كلّ باطل وخطأ فكيف ينال ما هو المصون عنه مطلقاً؟ إذ لا طريق للخطأ الى الصواب، فالحنين إلى رأس الخطأ لايجتمع مع عزم الصائب الصرف، كما لا تجتمع وليمة وعزيمة. وحيث إنّ أدب الصلاة ذريعة الى سرّها فالمصلّي المتأدّب بأدبها من الحضور القلبيّ يصل إلى سرّها، وهو الوجود العينيّ العقليّ الفائق عن الوجود المثاليّ، فضلاً عن الطبيعيّ، سيّما الاعتباريّ المتحقّق في عالم الطبيعة. وما صَلّاه الرسول الأكرم -صلّى الله عليه وآله- في المعراج كان جامعاً لجميع نشآت الصلاة، والمصلّي الّذي له حضور تامّ فهو الّذي يناجي ربّه، ويقول: إيّاك نعبُدُ وإيّاك نستعين، ومعلوم أنّ هذا المصلّي المستغرق في شهود الكثرة -حسب التعبير بصيغة المتكلّم مع الغير- لم يبلغ بعد مرحلة الوحدة الصرفة الّتي لا أثر هناك للنجوى ولا للمناجي، فضلاً عن غيرهما من أُولي العبادة والنداء والنجوى والاستعانة، ولكنّ السُلّم منصوبٌ، والأمر بالقراءة والرقيّ (اقرأ وارقَ) مسموع، والامتثال ميسور.

وقد تقدّم: أنّ النظام العينيّ قد استقرّ على العلّيّة والمعلوليّة كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «كلُّ قائمٍ في سواه معلول»[1]، أي: كلّ موجودٍ لا يكون وجوده عين ذاته فهو معلولٌ لما يكون وجوده محض ذاته، ولا ريب في لزوم كون العلّة أقوى من المعلول، ومع ذلك قال بعض أهل المعرفة[2]: إنّ «بسم الله» من العبد بمنزلة «كُن» من الربِّ، وقد ورد فيه: أنّه أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها، فالمصلّي العارف بحكمة الصلاة، المتأدّب بأدبها يصل الى حدٍّ يكون تلفّظه به «بسم الله الرّحمن الرّحيم» في بدء الفاتحة الّتي لاصلاة بدونها بمنزلة «كن» من الله الّذي إذا صدر منه يتحقّق المراد ويكون (بالكون التامّ لا الناقص).

(١) نهج البلاغة: الخطبة «١٨٦». (٢) انظر الفتوحات المكيّة.

ومن المعلوم أنّ القراءة بوجودها الاعتباريّ لا تقدر على التأثير العينيّ، بل بما لها من السرّ الوجوديّ، والاسم أمر عينيّ مُسبّح عن العيب والنقص، فلذا أمر الله سبحانه رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بالتسبيح له حيث قال تعالى: «سبِّح اسم ربّك الأعلى»[1]، وذلك الاسم هو سرّ للاسم اللفظيّ الّذي يقرأُهُ المصلّي. ولا خفاء في أنَّ سرّ الاسم الأعظم هو أعظم الأسرار، ولا يُنال إلّا بخرق الحجب طرّاً كما مرّ في تكبيرات الافتتاحيّة، ولذا ورد في حديث المعراج «... فلمّا فرغ من التكبير والافتتاح أوحى الله إليه: سمِّ باسمي، فمن أجل ذلك جُعل بسم الله الرّحمن الرَّحيم في أوّل السورة»[2].

وحيث إنّ بسم الله في أوّل كلّ سورةٍ له معنىً خاصّ مطابق لما تحتويه تلك السورة، وكانت سورة الحمد كافلة لمعارف جمّةٍ فبسم الله الواقع في أوّلها جامع لتلك المعارف، ولمّا كان إدراك تلك المعارف مرقاةً إلى شهود أسرارها فلنأتي بشيءٍ منها؛ لأنّ الحرَّ تكفيه الإشارة عن العبارة.

إنّ الحمد إنّما هو تجاه النعمة، والنظام الإمكانيّ من المعقول إلى المحسوس، ومن الغيب إلى الشهادة نعمة إلهيّة أنعمها البارئ تعالى، فهو تعالى مستحقّ للحمد، ولا محمود سواه، وحيث إنّه لا وجود حقيقيّ لغيره، لأنّ كلّ ما سواه آيات ومظاهر له فهو مالك بالاستقلال لما يصدر عن ماعداه، فالحمد المتمشّي من غيره إنّما هو مظهر للحمد الناشئ منه تعالى، فلا حامد عداه، فهو الحميد بالمعنى المطلق، أي: الحامد والمحمود.

وقد علّل في هذه السورة استحقاقه تعالى للحمد بأُمورٍ خمسةٍ، بعضها جامع ومتن، وبعضها الآخر شرحٌ لذلك المتن:

الأوّل: ـ أي: ما هو بمنزلة المتن ـ هو عنوان «الله»؛ لأنّه جامع لجميع الكمالات، وكلّ من جمع الكمال فهو محمود، فالله محمود فله الحمد، وهذا القسم

---

(١) الأعلىٰ: ١.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ١٠.

بمنزلة المتن الّذي تشرحه سائر العلل الأربع الآتية.

الثاني: ـأي: ما هو بمنزلة الشرح وهكذا العناوين الأُخر القادمةـ هو عنوان الربوبيّة الّتي هي من الصفات الخاصّة، وحيث إنّ الله سبحانه ربّ العالمين وكلّ ربٍّ محمود فهو محمود فله الحمد.

الثالث: هو عنوان الرحمانيّة الّتي هي أيضاً من الصفات الخاصّة؛ لأنّها وإن كانت أعمّ من غيرها إلّا أنّها بالقياس إلى عنوان «الله» خاصّة، وإن يظهر من بعض أهل المعرفة[1] كونها أيضاً اسماً أعظم نظير عنوان «الله» حسبما يُستفاد من قوله تعالى: «قُل ادْعُوا الله أو ادْعوا الرَّحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماءُ الحُسنى»[2] لدلالته على أنّ كلّ واحدٍ من «الله» و«الرَّحمن» واجد للأسماء الحسنىٰ، إذ المستفاد منه: أنّ كلّ واحدٍ من ذينك الاسمين فله- أي: لكلّ واحدٍ منهما ـ الأسماء الحسنىٰ، إذ الضمير يرجع إلى أيٍّ، لا الى خصوص الذات المطلقة الواجبيّة، ولكن لمّا لم يجعل عنوان «الله» وصفاً وتابعاً، ولكن يجعل عنوان «الرَّحمن» وصفاً وتابعاً، فيمكن الفرق بينهما بجعل «الله» جامعاً وجعل «الرَّحمن» شارحاً.

الرابع: هو عنوان الرحيميّة الّتي هي أيضاً من النعوت الخاصّة؛ لعدم اتّساعها بالنسبة إلى غير المؤمن. وعلى أيّ تقديرٍ لا تكون نظير عنوان «الله» اسماً أعظم، وحيث إنّ الله سبحانه رحيم وكلّ رحيمٍ محمود فهو تعالى محمود فله الحمد.

الخامس: هو عنوان مالك الجزاء بالجنّة والنار، وذلك من شؤون الحكمة والعدل، كما أنّه من شؤون القدرة أيضاً، وكلّ حاكمٍ عدلٍ يملك الجزاء في قبال العمل، إن كان خيراً فبالجنّة، وإن كان شرّاً فبالنار، فهو محمود، وحيث إنّ الله سبحانه مالك له فهو محمود فله الحمد.

فهذا الجزء من الفاتحة حاوٍ للمبدأ والمعاد ومابينهما. أمّا الأوّل والثاني ـأي: المبدأ والمعادـ فواضح بما قرّر، وأمّا الّذي يرجع إلى مابين المبدأ والمعاد فهو الدين

---

(١) راجع الفتوحات المكّيّة. (٢) الإسراء: ١١٠.

والصراط والنبوّة والرسالة والوحي والولاية، وما الى ذلك ممّا يرجع الى ربوبيّته تعالى، حيث إنّ الربَّ كما يربُّ الحجر والمدرَ والشجرَ والبرَّ والبحرَ والحيوان الأعجم كذلك يربُّ الإنسان، ومعلوم أنّ ترنْبيبه وتربيته إنّما هو في ضوء الشريعة والصراط الّذي بدونه يكون الناس كالأنعام بل هم أضلّ، وبه يصير نبيّاً ورسولاً ووليّاً، أو عبداً صالحاً ومؤمناً فالحاً ونحو ذلك.

ومن المعلوم: أنّ لكلٍّ من المعارف المارّة سرّاً عينيّاً يختصّ به، ولا ينال المصلّي المناجي ربّه إيّاه إلّا بمعرفة هذه المعارف والاعتقاد بها والسير نحوها حتّى يحصل له شهود مصاديقها، ويصل إلى سرّها، وما نقل من مآثر أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ وآثار مقتفيهم من الخُرور مَغشيّاً عند قراءة الفاتحة فإنّما هو باستنادشهود نبذٍمن أسرارها.

وحيث إنّ المصلّي بعد معرفة استحقاق الله سبحانه للعبادة بالبرهان الّذي أقامه القرآن يريد أن يصل إلى معروفه بالعيان، أي: العرفان، ولا وسيلة لتلك الصِلة إلّا الصلاة، كما قرّر من أنّها حجزة عن الرين وما يوجب البُعد، ووصلة بين العبد والمولى، يتوسّل إليه تعالى بالعبادة، ويناجيه بقوله: «إيّاكَ نعبُدُ» بتقديم ما يفيد الحصر، ولعلّ قصده في التعبير بالمتكلّم مع الغير هو: أنّه في صفّ سائر الموجودات العابدة له تعالى، إذ الله ربٌّ للعالمين الّذين يعبدون ربّهم الواحد، أو هو أنّه في صفّ سائر المصلّين الراكعين الساجدين الّذين أمرنا الله تعالى بأن نكون معهم، كما قال تعالى: «واركعوا مع الراكعين»[1]، أو هو أنّه مع قلبه وسائر جوانحه وجوارحه بائتمامهم بإمامهم، أي: العقل القاهر على ماعداه يعبدونه تعالى؛ لأنّ المؤمن وحده جماعةٌ، كما تفطّن له المجلسيّ الأوّل قدّس سرّه[2].

وعلى أيّ تقدير: يحتاج السالك في طيّ طريق العبادة الصالحة لأنْ تُوصل العبد الى مولاه وتجعل معقوله مشهوده الى الإعانة، ولـمّا انحصرت الربوبيّة في الله

(١) البقرة: ٤٣.

(٢) روضة المتّقين: ج٢ ص ٤٨٦.

تعالى فلا معين إلّا هو، ولذلك يناجي ربّه بقوله: «ايّاك نستعين» بتقديم ما تقدّمه يفيد الحصر، وحيث إنّ الله سبحانه معين مَن استعانه فيُعينه بما استدعاه، ويهديه إلى صراط الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً، فهؤلاء الّذين هم على الصراط المستقيم -وهم المُنعَمُ عليهم- هم الّذين يعبدون الله سبحانه ويناجونه، والمصلّي يرىٰ نَفسَه مَعهم، وهم الّذين لم يخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، بل هم الّذين خلصوا من دم الإفراط، وروث التفريط، ونجوا من الغضب والضلالة، وقالوا: ربّنا الله واستقاموا، فتتنزّل عليهم الملائكة المبشّرات.

والمصلّي إذا نجا من جانبي الغضب والضلال ومشىٰ على الصراط السويّ وأخلص عبادته لله تعالى يأتيه اليقين، أي: عين اليقين، فيشاهد ما فهمه بالبرهان، ويجد ما وعده القرآن بقوله تعالى: «واعبُد ربّك حتّى يأتيَك اليقين»(١)، إذ المراد من الآية: هو بيان الفائدة، لا الغاية؛ لأنّ معناها: أنّ من بركات العبادة وفوائدها هو: حصول اليقين، لا أنّ المراد منها هو تحديد العبادة وتعيين حدّها به، بحيث إذا حصل اليقين مازالت الحاجة إلى العبادة، بأن تكون العبادة بمنزلة النعلين، حتّى إذا بلغ السالك الى الوادي المقدّس -اليقين- يلزم خلعهما، بل العبادة بمنزلة المقدّمتين للنتيجة، والمرقاة للصعود الى الدرجة الراقية، بحيث يلزم حفظ المقدّمتين للنتيجة حدوثاً وبقاءً وكذا صون السُلّم للصعود، حتّى إذا زالت المقدّمتان زالت النتيجة، وإذا سقط السلّم هبط الصاعد كهبوط الشيطان المرجوم بقوله تعالى: «فاهبِط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها»(٢).

ثمّ إنّ المصلّي المناجي ربّه قد يكون نجواه بلا وسيطٍ من حجابٍ أو رسولٍ، وقد يكون من وراء حجاب، وقد يكون بوساطة رسولٍ، كما أنّ الله تعالى المتكلّم لعبده لا يكلّمه إلّا بأحد الأنحاء الثلاثة حسبما أفاده في سورة الشورى، حيث قال تعالى:

---

(١) الحجر: ٩٩.
(٢) الأعراف: ١٣.

«وما كان لبشرٍ أنْ يكلِّمهُ الله إلاّ وحياً أو من وراء حجابٍ أو يُرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليٌّ حكيمٌ»[١].

والسبب في التثليث المذكور هو ضعف الممكن عن التكلّم، أو الاستماع بلا وسيطٍ دائماً، بل إنّما هو للأوحديّ من الإنسان حيّناً، وحيث إنّ تكلّم العبد مع مولاه فرع تكليم الله إيّاه وكان ذلك على ثلاثة أنحاء كان تكلّم العبد أيضاً كذلك، ولابدّ هنا من التنبّه لأمرين:

أحدهما: أنّ الله الحائل بين المرء وقلبه أقرب إلى المصلّي المناجي من نفسه إليه فضلاً عن غيره، فلا وسيط ولا حاجب من ناحيته تعالى، إنّما الوساطة والحجاب من جانب المستمع الواعي دائماً.

وثانيهما: أنّ الحجاب المنتفي في القسم الأوّل من الأنحاء الثلاثة إنّما هو بالقياس إلى النحوين الآخرين المذكور أحدهما في القسم الثاني، وهو ما يكون من وراء حجابٍ، والآخر في القسم الثالث، وهو ما يكون بإرسال الرسول. وأمّا بالقياس إلى نفسه فهو أيضاً حجاب لا محالة؛ لأنّ الممكن المحدود يكون أصل وجوده وحدّه وتقيّده وتعيّنه حجاباً عن شهود الوجود البحت، المطلق المنزّه عن الحدّ المقدّس عن القيد، فلا حجاب بينه وبين الله سبحانه إلاّ نفسه كما أشار إليه بعض النصوص.

ومن هنا يمكن أن يقال بأنّ التكليم منحصر في وراء الحجاب، وكذا النجوى منحصر فيه، ولقد أفاد صاحب الفتوحات حصر المناجاة في وراء الحجاب[٢]، وإن كان الحقّ هو: كون الحصر من جانبي التكليم والنجوى، وكون منشأ الحجاب فيهما هو قصور الممكن وضَعفه، حتّى في مرتبة الفناء الّذي لايُشاهد فيه الفاني نفسه؛ لأنّ ذاته المحدودة وإن لم تكن مشهودةً حينذاك ولكنّها ليست معدومةً، وإلاّ لَما كان الفناء كمالاً، بل موجودة، فإذا كانت موجودةً فلها حكمها الخاصّ من

(١) الشورىٰ: ٥١.

(٢) الفتوحات المكّيّة: ج١ ص ٤١٠.

الحجاب، فتدبّر.

فعند اتّضاح أنحاء النجوىٰ وأنّ الأصل الحاكم في أنحائه هو كونه من وراء الحجاب وأنّ نفي الحجاب نسبيٌّ لا نَفْسيّ يتبيّن معنى الخطاب في قوله: «إيّاك نعبد وإياك نستعين»، ومعنى الدعاء الشفهيّ في قوله: «إهدنا الصراط المستقيم»، كما أنّه يتبيّن سرّ تقديم التوجّه بالأولياء في افتتاح الصلاة، وقبل دخولها[١]، إذ الخطاب والدعاء لأكثر الناس بل لكثيرهم ليس إلّا من وراء الحجاب وإن كان ذلك الحجاب من قبلهم لا من الله سبحانه. وأمّا الأوحديّ من الّذين استخلصهم الله لنفسه نجيّاً فهو وإن لم يكن هناك حجاب مركوم ومركّب ولكن لا محيص هنالك عن الحجاب البسيط، وهو نفس ذاك المناجي وذاته.

هذا نبذٌ ممّا يرجع إلى أصل النداء والنجوىٰ وأنحائه، وإلى ما تحويه سورة الحمد، مع أنّ أصل الحمد من تعليم الله سبحانه، إذ لو حبس عرفان حمده عن عباده على ما أبلاهم من مِنَنه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا في مِنَنه فلم يحمدوه، وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانيّة إلى حدّ البهيميّة، فكانوا كما وصف في محكم كتابه: «إنْ هُم إلّا كالأنعام بَل هُم أضلُّ سبيلاً»[٢]، على ما أفاده مولانا السجاد ـ عليه السلام ـ في صحيفته[٣]، فعليه يكون الحمد فصلاً مقوّماً أخيراً للإنسان فهو ناطق حامد.

وأمّا ما يرجع إلى السورة فحيث إنّ المصلّي له الخيرة في قراءة أيّة سورةٍ شاء من القرآن ـ عدا العزائم الأربع ـ فلا مجال للبحث عن سرّ سورةٍ خاصّةٍ يعيّنها إلّا بما يرجع إلى أصل الخطاب، وإلى أصل القرآن، وقد مرّ منها ما يناسب هذا المختصر، ولكن لمّا قرأ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في المعراج سورة التوحيد ـ حسبما أمَرَه الله تعالى بأن قال: «إقرأ يا محمّد نسبة ربّك قل هو الله أحد»[٤] ـ فبالحري أن يُشار إلى

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢ و ٣.
(٢) الفرقان: ٤٤.
(٣) الدعاء الأوّل في التحميد.
(٤) راجع حديث المعراج المتقدّم.

شطرٍ من سرّها.

وليعلم: أنّه قد ورد في شأن سورة التوحيد، وكذا الآيات الستّ من أوّل سورة الحديد ما لاينبغي الذهول عنه، وهو مارواه الكلينيّ ـ رحمه الله ـ بإسناده عن عاصم ابن حميد قال: سئل عليّ بن الحسين ـ عليهما السّلام ـ عن التوحيد؟ فقال: «إنّ الله ـ عزّوجلّ ـ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون، فأنزل الله تعالى «قل هو الله أحد»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «والله عليمٌ بذات الصُدُور»، فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[١].

إنّ التعمّق: هو التأمّل في العمق، كما أنّ التدبّر: هو التأمّل في الدَبْر، وحيث إنّ للقرآن بطناً بل بطوناً فللتعمّق فيه مجال، كما أنّ له إنباءً عمّا يأتي من الحوادث فللتدبّر فيه مجال أيضاً. والقرآن آخر كتاب إلهيٍّ نزل، وهو خاتم الكتب وخاتم الصحف، والناس في تكامل حلومهم إلى حدٍّ يليقون لظهور خاتم الأولياء وخاتم الأوصياء المهديّ المنتظر أرواحنا فداه، وحينذاك تتعالى العلوم الشهوديّة، باطّلاع غير واحدٍ من الناس على الغيب بما يراه من نوره، وتتكامل العلوم الحصوليّة بعثور غير واحدٍ من الأذكياء على براهين المبدأ والمعاد، فلابدّ من علمٍ شهوديّ جامع، وكذا من علمٍ برهانيّ كافل، ولكلّ واحدٍ منهما أصحاب ورجال يختصّ به، ووليّ العصر ـ عليه السّلام ـ هو المعلّم الجامع بين الغيب والشهود، كما أنّ القرآن كتاب كافل لهما وعلى كاهله تعليم الحكماء، وإراءة العرفاء فلذا يلزم أن يشمل على ما لاحدّ فوقه، ولا مقام إمكانيّ وراءه، وكل حدٍّ برهانيّ أو مقام شهوديٍّ يفهمه الحكيم أو يشهده العارف فالقرآن واجد له، وحيث إنّ الأساس لجميع المعارف هو التوحيد ـ وكلّما كمل العلم به كمل العلم بغيره من المعارف الراجعة إليه ـ فلذا أنزل الله سبحانه ما هو الشامل لأقصىٰ مراتب البرهان، وأعلى درجات العرفان، كما هو المترقّب من القرآن الهادي لهما إلى لقاء الرّحمن.

---

(١) الأصول من الكافي: ج١ باب النسبة ص٩١.

ومن هنا تبيّن أنّ ظاهر النصّ المذكور هو مدح التعمّق، وترغيب المتعمّقين، وأنّه لاحدّ وراء ما تحويه سورة التوحيد والآيات الستّ من سورة الحديد، وأنّ تهلكة من رام وراءه فإنّما هي إرشاد إلى نفي الحدّ الفائق، إذ السلوك فيما لا طريق إليه ولا حدّ له تيهٌ، والتائه هالكٌ، والهالك عن بيّنةٍ في جهنم لا رحمة فيها، كما في نهج البلاغة الكتاب٢٧: «دارٌ ليس فيها رحمةٌ ولا تُسمع فيها دعوةٌ».

إنّ رواسي الحكمة المتعالية وأوتادها الّذين وتّد الله سبحانه بهم بعد الأئمّة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ مَيدَانَ أرض المعرفة، لئلّا يزلّ أو يضلّ أو يذلّ من ليس له حكيم يرشده، قد استنبطوا من هذا الحديث النورانيّ: أنّه في سياق مدح المتعمّقين، حيث قال صدر المتألّهين ـ قدّس سرّه ـ ما عصارته: إنّ هذا العبد كان في سالف الزمان متأمّلاً في رموز القرآن وإشاراته، وكان المتفتّح من آيات هذه السورة أكثر من غيرها، فحداني ذلك إلى تفسير القرآن...، وكان أوّل ما أخذت في تفسيره هذه السورة (سورة الحديد)... ثمّ بعد أن وقع إتمام تفسيرها... واتّفقت مصادفتي لهذا الحديث...، فاهتزّ خاطري...، وانبسط نشاطي...، فشكرت الله على ما أنعم...[1].

وقد اقتفى صهره في الوافي أثره؛ لأنّه منه كالضوء من الضوء، وكالصنو من الصنو، والذراع من العضد، حيث قال رحمه الله: لعلّه ـ عليه السّلام ـ أشار بالمتعمّقين إلى أكابر أهل المعرفة، ولعمري أنّ في سورتي: التوحيد والحديد ما لايدرك غوره إلّا الأوحديّ الفريد؛ ولا سيّما الآيات الأُوَل من سورة الحديد، وخصوصاً قوله عزّوجلّ: «وهو معكم أينما كنتم»[2]!

ولكنّ العلّامة المجلسيّ ـ قدّس سرّه ـ بعد وصفه الحديث بأنّه صحيح احتمل في قوله عليه السّلام: «المتعمّقون» ثلاثة احتمالات:

---

(١) شرح الأُصول من الكافي: ص٢٤٨ الطبعة الحجريّة.

(٢) الوافي: ج١ ص٣٦٩ ط مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام.

الأوّل: أن يكون أمراً بالتعمّق، فالمعنى: ليتعمّقوا فيه.

الثاني: أن يكون نهياً عنه، فالمعنى: لا يتعمّقوا كثيراً بأفكارهم، بل يقتصروا في معرفته سبحانه على مابيّن لهم.

الثالث: أن لا يكون بمعنى الإنشاء، سواء كان أمراً كالأوّل، أو نهياً كالثاني، بل هو إخبار، ومبيّن للضابط والمعيار الّذي يعرضون أفكارهم عليها، فلا يزلّوا ولا يخطأوا، ثم قال رحمه الله: والأوسط أظهر، أي: كونه نهياً عن التعمّق بأفكارهم أظهر؛ للزوم الاقتصار على مابيّن لهم[١].

أقول: الظاهر هو الأخير، إذ لا مجال لحمل قوله عليه السّلام: «متعمّقون» على الإنشاء أوّلاً، ولكفاية الآيات الدالّة على أنّه تعالى ليس كمثله شيء، وأنّهم لا يحيطون به علماً، وأنّه لا تدركه الأبصار ثانياً بلا فاقةٍ الى نزول هاتين السورتين، ولأنّ نطاق هاتين السورتين مفيد لغير واحدٍ من الأوصاف الإلهيّة الّتي ترتعد فرائص العقول حولها ثالثاً، ولو كان الهدف السامي لنزولها هو النهي عن التعمّق ونحو ذلك لكان لها لسان آخر، فالصواب هو: أنّ محتواهما بيان للمعيار النهائيّ في التوحيد حتّى تعرض عليه الأفكار والآراء كما استنبطه أساطين الحكمة، فمحتوى السورتين ميزان قسط لايحيد، فلابدّ من عرض المعارف عليه.

ومن هنا يظهر: أنّ ما أفاده بعض مشايخنا[٢] ـ قدّس سرّه ـ من: أنّ الأظهر أنّ الرواية ذمٌّ للمتعمّقين إلى الّذين يتصدّون لمعرفة ما لايناله الإنسان من ذات الله تعالى، وأمرٌ لهم بالاكتفاء بمفاد الآيات[٣] ليس بتامٍّ؛ لأنّ المطلب المذكور وإن كان حقّاً في نفسه ـ لأنّ التصدّي لما لاينال تهلكة وتيهٌ ـ ولكنّ السورتين قد اشتملتا على معارف جَمّةٍ لم يكن في وسع من قدّمه الدهر أن ينالها، كما لم يُؤثر عنهم ما نالته رجال من فارس، ولو لم يصدّر قوله ـ رحمه الله ـ بما نقل عن صدر المتألّهين ـ قدّس

---

(١) مرآة العقول: ج١ ص٣٢٠ ط دارالكتب الإماميّة.

(٢) هو العلامة الشعرانيّ رحمه الله.

(٣) الوافي: ج١ ص ٣٦٩.

سرّه- لكان لمقاله وجه وجيه، ولكنّه -رحمه الله- نقل أوّلاً قول صدر المتألّهين رحمه الله، ثمّ أتىٰ بما نُقل، ولقد أجاد -قدّس سرّه- في تعليقته على شرح المولى الصالح للأُصول من الكافي، حيث فصّل بين التعمّق المذموم والممدوح، وقال رحمه الله: وأمّا المذموم فالتعمّق فيما لا تصل إليه العقول من الكلام في الذات وتشبيهه تعالى بالأجسام. وأمّا الممدوح فالتفكّر في عظمته وقدرته وحكمته وما يصل إليه العقول من صفاته[١]. كما أنّه أجاد الشارح -أي: المولى الصالح- في شرحه فراجع.

وبالجملة: أنّ سورة التوحيد وأوائل الحديد لاشتمالهما على الضابط الإلهيّ المصون عن أيّة مغالطةٍ تكون ذريعةً لنيل أسرار الصلاة وشهودها؛ لأنّ المعرفة الحصوليّة بذر المشاهدة الحضورية كما قيل.

ولامساغ لأحدٍ أن يخالف ما في هاتين السورتين، أو يختلف عنه، أو يُخلّفه، إذ المخالف له مناقض للقرآن الّذي لاريب فيه، فالمخالف يتردّد في ريبه، إذ مخالف ما لاريب فيه مريبٌ، وأمّا المختلف معه المتخلّف عنه فهو قاصر مُفرّط. ومن المعلوم أنّ المتأخّر عن الحقّ زاهق، والمتقدّم عليه المُخلّف له -أي: الّذي يجعل نفسه إمام القرآن وأمامه، ويجعل القرآن خلفه- فهو متعدٍّ مُفرط. ومن الواضح أنّ المتقدّم على الحقّ مارق، ومَن سار على ماتهديه السورتان وسلك سبيلهما كاد أن يصل إلى سرّهما الّذي هو الموجود العينيّ المتجلّي بصورة السورة، والمكتسي بكسوتها؛ لأنّ اللازم للحقّ لاحق.

وليعلم: أنّ في بعض نصوص المعراج: أنّه قد أوحى الله تعالى إلى رسوله -صلّى الله عليه وآله- الّذي عرج به -في قراءة الركعة الأُولىٰ: اقرأ يا محمّد نسبة ربّك تعالى «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، وفي قراءة الركعة الثانية: اقرأ «انّا أنزلناه» فإنّها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة.

والّذي يُستفاد من هذا التعبير هو: أنّ نسبة كلّ موجودٍ وما ينتمي هو به إنّما هو

---

(١) شرح المولى الصالح المازندراني -رحمه الله- للأُصول من الكافي: ج٣ ص١٩٠.

الوجود الخاصّ، والكمال الوجوديّ المخصوص. وأمّا العنوان الاعتباريّ والإضافة الطارئة الّتي لامساس لها بذات الشيء فلا دخل لشيءٍ من ذلك في الانتماء. والّذي يصلح لأنْ يجعل نسبة الربّ تعالى هو الهويّة المطلقة الأحديّة البحتة الصمديّة الصرفة، مسلوباً عن ذلك كلّ مايرجع إلى النقص، والّذي يصلح لأنْ يجعل نسبة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأهل بيته ـ أي: انتماء الإنسان الكامل، والخليفة الشامل الجامع ـ هو كون قلبه مهبط الوحي، وموطن الملائكة النازلة به فيما يرجع إلى التشريع أو غيره في خصوص الرسول صلّى الله عليه وآله، وفيما يؤولُ إلى غير التشريع في غيره صلّى الله عليه وآله، والغرض: هو أنّ نسبة كلّ موجودٍ إمكانيٍّ فإنّما هي تربطه إلى الأحد الصمد الّذي هو المنسوب إليه لكلّ ماسواه.

وقد يلاحظ الترتيب في قوس النزول عكس ما في قوس الصعود؛ لأنّ الصاعد إلى الله يقرأ نسبة أهل البيت عليهم السّلام ـ أي: «إنّا أنزلناه...» في الركعة الأُولى ـ ونسبة الربّ تعالى ـ أي: «قل هو الله أحد...» ـ في الركعة الثانية؛ لأنّ الربّ تعالى مدينة الحقّ والتحقّق، والإنسان الكامل بابها، حسبما يُستفاد من أدعية التكبيرات الافتتاحيّة كما تقدّم، ويؤيّده ما في الزيارة الجامعة «... من أراد الله بدأ بكم»، وما في رواية الفقيه[1]. وإن كان الأمر في قوس النزول هو ما مرّ؛ لأنّه تعالى أوّل كلّ شيء. نعم، أوليّة كلّ شيءٍ بأوّليّته تعالى، وآخريّة كلّ شيءٍ بآخريّته تعالى؛ لأنّ ما بالعرض لابدّ وأن ينتهي إلى ما بالذات، وأمّا هو تعالى فهو الأوّل بلا شيء كان قبله، وهو الآخر بلا شيءٍ يكون بعده.

أمّا القراءة في غير الأُولَيين فتجوز الفاتحة كما يجوز التسبيح، أي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، والنصوص في بيان ما هو الأفضل فهما ـ أي: القراءة والتسبيح ـ متعدّدة، وفي بعضها تفصيلٌ بين الإمام وغيره[2]. وعلى أيّ

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٦٤.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ١٨٨ - ١٩٢.

تقدير: لو اختير التسبيح لكان اللازم على السائر سبيل السرّ الصائر إليه أن يتنبّه بما ورد من سرّ تربيع التسبيح، وأنّه واقعيّة عينيّة ينتظم بها العرش ومادونه، حيث إنّه ورد في سبب تكعّب الكعبة وبنائها على الجدران الأربعة من التعليل بكون البيت المعمور مربّعاً، المعُلّل تربيع ذلك البيت المعمور بكون العرش مضلّعاً بأضلاعٍ أربعةٍ، وجهاتٍ أربعٍ، المعلّل تربيع العرش بكون التسبيح أربعاً، وهي: «سبحان الله...».

والّذي يُستفاد من هذا التعليل هو: أنّ للتسبيح الجامع للتحميد والتهليل والتكبير وجوداً خارجيّاً، وأثراً عينيّاً مقدّماً على العرش الّذي منه ينتشئ الأوامر الإلهيّة، وسبباً لأن يُهيّأ العرش على مثال ذلك التسبيح، ولكلّ ضلعٍ من أضلاع العرش حكمٌ يختصّ به وإن كان الكلّ في الوجود الجمعيّ واحداً، لاصدعَ ولا شعبَ فيه.

فتبيّن في هذه الصلة أُمورٌ:

الأوّل: أنّ للقرآن سرّاً، وأنّه لا مجال هنالك للّفظ الاعتباريّ من العربيّة أو العبريّة أو نحو ذلك، ولا يناله إلّا اللبيب الّذي لا يحوم حوم لبّه سوى حبّ المعبود المتكلّم بذلك الكلام.

الثاني: أنّ «بسم الله» من العبد بمنزلة «كُنْ» من الربّ، وأنّه حاوٍ لأعظم الأسماء.

الثالث: أنّ الاسم المؤثّر في العين موجود خارجيّ لا اعتباريّ، وأنّ ذلك الموجود العينيّ مُسبّح، ولا ينال ذلك إلّا بخرق الحُجُب.

الرابع: أنّ الله هو الحامد والمحمود، وعلل حصر الحمد فيه تعالى.

الخامس: أنّ «الرحمن» اسم أعظم عند بعض أهل المعرفة.

السادس: أنّ فاتحة الكتاب تحميد ودعاء كما في بعض النصوص[1]، وأنّها

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ١٩٠، عن التهذيب.

كافلة للمعارف الثلاث من المبدأ والمعاد ومابينهما.

السابع: أنّ العبادة منحصرة لله، والاستعانة به تعالى.

الثامن: بيان المنعم عليه، ومن هوعلى الصراط المستقيم.

التاسع: أنّ اليقين فائدة العبادة المتحقّق بوجودها، الدائم بدوامها، الزائل بزوالها، لا أنّه غايتها وحدّها الباقي بعد زوالها؛ لأنّه زعم زائف، وإفك آفل، وفرض فائل.

العاشر: أنّ نَعْلَي السالك يُخلَعان بعد الوصول إلى المقصود، وأنّ مقدّمتي البرهان تحفظان بعد العثورعلى المطلوب.

الحادي عشر: أنّ أنحاء التكلّم مع الله ثلاثة، وأنّ الميز بينها في قلّة الحجاب وكثرته لا في أصل الحجاب وجوداً وعدماً.

الثاني عشر: أنّ الفناء الّذي هومن منازل السائرين ومقاصد الصائرين هو: عدم الشهود، لازوال الوجود؛ لأنّ الفناء كمال، وزوال الوجود نقص.

الثالث عشر: أنّ الحمد من تعليم الله، ولولاه لتصرّف الناس في المِنَن بلا حمدٍ، ولصاروا بهائم، وأنّ الفصل المقوّم للإنسان الناطق هو: الحمد، فالإنسان حيوان ناطق حامد.

الرابع عشر: ترغيب المتعمّقين بالتدبّر في سورة التوحيد وأوائل سورة الحديد، عدا التخصيص بالتأمّل في القرآن كلّه.

الخامس عشر: تكامل العقول والحلوم عند ظهور خاتم الأوصياء عليه السّلام.

السادس عشر: أنّ الحكماء المتألّهين هم الأوتاد والرواسي لأرض المعرفة.

السابع عشر: تضارب الآراء في معنى حديث السجّاد عليه السّلام، والتعمّق المذموم والممدوح.

الثامن عشر: أنّ سورة التوحيد هي نسبة الربّ، وسورة «إنّا أنزلناه»، هي نسبة أهل البيت عليهم السّلام.

التاسع عشر: العبرة بين قوسي النزول والصعود في تقديم إحدى سورتي التوحيد

و «إنّا أنزلناه» على الأُخرى.

العشرون: أنّ تربيع العرش مستند إلى تربيع التسبيح، فالمصلّي المناجي ربّه إذا استعاذ في بدء الصلاة بالله ممّا استعاذ منه عباده المخلصون يصير قلبه عرش الرحمان، حيث إنّ العرش على شاكلة التسبيح الأربع، فالمُسبِّح بالقلب، المقدّس باللبّ، المناجي بالسرّ بالغ عرش ربّه بإذنه.

الصلة الرابعة

في سرّ القيام والركوع والسجود و...

كما أنّ للصلاة ذكراً وقولاً كذلك لها حال وفعل، ولكلٍّ من ذلك سرّ، إذ الصلاة بأسرها ذات سرٍّ، وقد تقدّم أنّ الطريق الوحيد لبيان سرِّها هو: الكشف الصحيح، أو النقل المعتبر، إذ لا سبيل للعقل الطائف حوم كعبة الكلّيّات أنْ يَسعى بين مصاديقها الجزئيّة، وأنْ يلزم أن لا يكون الجزئيّ المنكشف أو المنقول مناقضاً للكلّيّ المعقول المُبرهن.

وأنّ الّذي يوجّه به حال المصلّي من القيام ونحوه لاخصّيصة له بالصلاة؛ لجريان غير واحدٍ من ذلك في غيرها: كالوقوف في عرفات، والمشعر، وكذا الطواف والسعي، حيث إنّ بعض ما يوجّه به أفعال الصلاة وأحوالها يجري في مناسك الحجّ والعمرة ونحوهما.

وحيث إنّ المهمّ هو النصّ الوارد في بيان أسرار الصلاة في المعراج ونحوه، فلنأت بنبذٍ منه، ثمّ نشير إلى ما يمكن توجيهه.

روي في العلل عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام: كيف صارت الصلاة ركعةً وسجدتين؟ (أي: في كلّ ركعةٍ ركوع وسجدتان)، وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟ فقال عليه السّلام: «إذا سألت عن شيءٍ ففرّغ قلبك لتفهم، إنّ أوّل صلاةٍ صلّاها رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ إنّما صلّاها في السماء

بين يدي الله تعالى قدّام عرشه تعالى... إلى آخره»[١].

والمستفاد منه: أنّ «صاد» الّذي أُمر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن يغتسل ويتوضّأ منه هو عين تنفجر من ركن العرش كما تقدّم، ويقال له: ماء الحياة، وهو ما قال الله عزّوجلّ: «ص والقرآنِ ذي الذكر»، وأنّ أحوال رسول الله صلّى الله عليه وآله: من القيام والركوع والسجود، والجلوس والانتصاب من ذلك كانت بالوحي الإلهيّ، ولكلّ حالٍ ذكرٌ وقولٌ، كما عن دعوات الراونديّ عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال: «أمرني جبرئيل أن أقرأ القرآن قائماً، وأن أحمده راكعاً، وأن أُسبّحه ساجداً، وأنْ أدعوه جالساً»[٢]. كما أنّه روي: «للانتصاب ذكر خاصّ».

ولمّا كان الإنسان كوناً جامعاً بين الحضرات كلّها فهو واجد لكلّ حالٍ يجده الملك، ولا عكس، إذ قد ورد في الملائكة: «أنّ منهم: سجوداً لا يركعون، وركوعاً لاينتصبون، وصافّون لا يتزايلون...»[٣]، ولكنّ الإنسان ينتصب تارةً، ويركع أُخرى، ويسجد ثالثةً، ويجلس رابعةً، ويتزايل إلى القيام خامسةً، كما فعله رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في المعراج.

وحيث إنّ ما ورد في سرّ الركوع أنّ تأويله: «آمنت بوحدانيّتك ولو ضربت عنقي»[٤] مثال لسائر أحوال الصلاة من القيام ونحوه، فيمكن أن يقال: إنّ سرّ القيام وتأويله هو الإعلام بالإعداد لمحاربة العدوّ من قوّةٍ تُرهبُه، والمقاومة تجاه أيّ بلاءٍ مُبين، إذ الصلاة ممّا يُستعان بها للحوادث والكوارث حسبما قال تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرةٌ إلّا على الخاشعين»[٥]. وهكذا الإعلام بامتثال قوله تعالى: «قُومُوا لله قانتين»[٦]. وبإطاعة قوله تعالى: «ياأيُّها الّذينَ آمنوا

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢١ عن علل الشرائع.

(٢) المصدر السابق: ص١٦ عن جامع الدعوات للقطب الراوندي.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة «١».

(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٦٢.

(٥) البقرة: ٤٥.

(٦) البقرة: ٢٣٨.

كونوا قوّامين بالقسط شُهداء لله...»[١]، و«... كونوا قوّامينَ لله شهداء بالقسط»[٢]، ولا خفاء في أنّ المراقب على القيام لله وحده يصير قائماً بالقسط، ثمّ يصير قوّاماً به، ثمّ يصير مظهراً للقيّوم الّذي تعنو له الوجوه بالعَرَض والتبع، كما أنّها عَنَت للحيّ القيّوم بالذات وبالأصالة.

والغرض: كما أنّ المحاورة قد استقرّت على التعبير عن الصبر والحلم والجهاد والاجتهاد بالقيام؛ لأنّه أقوىٰ حالةٍ للإنسان بها يقدر على الذبّ أو الصَول كذلك المشاهدة الملكوتيّة قد استمرّت على التمثّل بالقيام أو الانحناء أو السجود، أو الجلوس، لأحوالٍ تعتري الإنسان تجاه ربّه من الحضور لديه، والانقياد لأمره، والتذلّل في فنائه، والتربّص لصدور أمره، وحيث إنّ المهمّ في إقامة الصلاة هو كون المصلّي قائماً لله لا يعجزه شيء ولا يُقعده أمرٌ من الأُمور ورد في حقّ القيام والاهتمام به حال الصلاة: أنّه «لا صلاة لمن لم يُقم صُلْبه»[٣]، وهذا وإن كان ظاهره الحكم الفقهيّ من لزوم الاستواء حال التكبير للإحرام، وحال القراءة، وقبل الركوع ونحو ذلك ممّا يجب فيه القيام، ركناً أو جزءاً ولكنّ تأويله هو: أنّ المناجاة مع الله تستلزم المقاومة مع الخواطر والهواجس، فضلاً عنها مع الكوارث والحوادث.

كما أنّ إحياء العدل، وإجراء القسط، وعونْ المظلوم، وخصم الظالم تفتقر إلى القدرة المعبّرة عن ذلك بالقيام بالقسط، حسبما ورد في حقّ الله تعالى: «شَهِدَ الله أنّه لا إله إلّا هُو والملائكةُ وأُولوا العلم قائماً بالقسط»[٤]. وحيث إنّ الله سبحانه دائم في شهادته بالوحدانيّة فهو دائم القيام بالقسط، وكذلك الملائكة الّذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ويخافون من فوقهم، ولا يعصونه طرفة عينٍ، بل وهكذا أُولوا العلم، إذ الدوام في الشهادة بالتوحيد مستلزم للدوام في القيام

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٧٩.

(٤) آل عمران: ١٨.

بالقسط، فهو قائم دائماً، ولعلّ من هذا القبيل: اتّصاف بقيّة الله تعالى واتّسامه -عليه السّلام- بوصف القيام وسمَته.

ولمّا كان القيام لإحياء كلمة الله وإعلائها فمن أحياها وأعلاها فهو قائم واقعاً وإن كان قاعداً ظاهراً. ومن لم يُحيها ولم يُعلها فهو قاعد واقعاً وإن كان قائماً ظاهراً حسبما يُذكر في تفسير القيام للجهاد، والقعود عنه، من أنّ المدار هو: إحياء الدين بالجهاد والاجتهاد، وإعلاء كلمة الحقّ بالإيثار والنثار، سواء كان المجيء قائماً أو قاعداً على ما بينهما من المَيزْ المقوليّ؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهما من مقولة الوضع، ولا اعتداد بالقيام البدنيّ تجاه قيام القلب بإحياء الدين وصَون تراثه عن الضياع، ولعلّ من هذا القبيل: هو ماقاله أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «... وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادةٍ أو نقصانٍ، زيادةٍ في هدىً، أو نقصانٍ من عمىً»[1]. وما قاله -عليه السّلام- في وصف أولياء الله «... بهم قام الكتاب وبه قاموا»؛ لأنّ المراد من قيام القرآن بهم: هو ظهوره العلميّ في القلوب، والأذهان، وأثره العمليّ في الجوارح والأبدان بإرشادهم وتبليغهم، كما أنّ المراد من قيام هؤلاء الأولياء بالقرآن: هو علمهم وعملهم به، وتعليمهم الناس الكتاب والحكمة وتزكيتهم بما يُبعدهم عن النار، ويقرّبهم إلى الجنّة، ويُزلفهم إلى لقاء الله سبحانه. ومن هنا يظهر أيضاً معنى قول عليٍّ -عليه السّلام- في طعن النفاق، وقدح المنافق: «... قد أعدّوا لكلّ حقٍّ باطلاً، ولكلّ قائمٍ مائلاً...»[2].

والحاصل: أنّ القيام إنّما هو تمثّل للحالة الّتي بها يقدر العبد على المسارعة، ثمّ الاستباق، ثمّ الإمامة بأتمّ وجهٍ، فمن قام واستقام لله تتنزّل عليه الملائكة وتبشّره بالولاية الطاردة للخوف والحُزن، كما قال تعالى: «إنّ الّذين قالوا ربُّنا الله ثمّ استقاموا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة الّتي كُنتُم

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة «١٧٦».

(٢) المصدر السابق: الخطبة ١٩٤.

تُوعدون»[١]. فمن استمرّ على الاستقامة يمكن أن يشاهد المُبشِّرات من الملائكة ويراهم، كما أنّه يسمع كلامهم، إذ الّذي يختصّ بالرسول هو ما يرجع إلى خصوص التشريع، وأمّا ما يرجع إلى التسديد ونحوه فلا.

فكما أنّ قيام الله بالقسط منزّه عن الحالة الخاصّة البدنيّة كذلك سرّ القيام الملحوظ في سرّ الصلاة منزّه عنها، وإنْ كان القيام المعتبر في صورة الصلاة وظاهرها هو عبارة عن تلك الحالة البدنيّة فالمصلّي المناجي ربّه المتمثّل بين يدي معبوده القائم بالقسط لابدّ له من التمثّل بالقيام، إذ القلب القائم يظهر أثر قيامه في القالب والجوارح، كما أنّ خشوع القلب يتجلّى فيها، أي: في الجوارح، لما روي عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام: أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[٢]، ولا ينافيه ما ورد عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه كان يَمسّ لحيته أحياناً في الصلاة، فقيل له يا رسول الله، نراك تَمسّ لحيتك في الصلاة؟ فقال صلّى الله عليه وآله: «إذا كثرت همومي»[٣]، لأنّ المسّ هو غير العبث فلا ينافي الخشوع القلبيّ أوّلاً، وأنّه نحو ابتهال وتضرّعٍ لدى الله عند ازدحام الهموم ثانياً، وكان اهتمامه ـ صلّى الله عليه وآله ـ واحداً، وهو خروج القرآن عن الهجران، حيث اتّخذه قومه مهجوراً، وإيمان قومه؛ لأنّهم كفروا بالله ورسوله، وكان ـ صلّى الله عليه وآله ـ باخعاً نَفسه على آثارهم، لأنّهم لم يأمنوا بما جاء به أسفاً عليهم، ولم تكن همومه للدنيا الّتي طلّقها وصيّه ثلاث تطليقاتٍ، فضلاً عنه ـ صلّى الله عليه وآله ـ نفسه. هذا بعض ما يرجع إلى سرّ القيام في الصلاة.

وأمّا الركوع وكذا السجود: فتأويله هو: أنّ المصلّي المناجي ربّه وإن أقام صُلبه وقام لامتثال أمره تعالى واستقام واعتدل ولكنّ ذلك كلّه بالقياس إلى ما يُعدُّ عَدواً

(١) فصّلت: ٣٠.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٧، عن الجعفريّات: ص٣٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٨.

لله ولأمره ونهيه من الشيطان الغويّ، والنفس الأمّارة بالسوء، والدنيا الغرور. وأمّا بالقياس إلى الله تعالى فكلّ قيامٍ عنده قعود، وكلّ اعتدالٍ عنده انحناء، وكلّ إقامة صلبٍ عنده انكسار ونحو ذلك؛ لأنّ كلّ حيٍّ بالقياس إليه تعالى ميتٌ، وكلّ عليمٍ بالقياس إليه جاهل، وكلّ قادرٍ بالنسبة إليه عاجز، حيث إنّ كلّ شيءٍ بالقياس إلى وجهه الباقي هالك، ولذلك قال أمير الموحّدين عليّ عليه السلام: «كلّ قويّ غيره ضعيف، وكلّ مالكٍ غيره مملوك، وكلّ عالمٍ غيره متعلّم، وكلّ قادرٍ غيره يقدر ويعجز، وكلّ سميعٍ غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه مابعد منها، وكلّ بصيرٍ غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهرٍ غيره باطنٌ، وكلّ باطنٍ غيره غير ظاهر...»(١).

فالمصلّي المناجي ربّه لابدّ وأن ينحني، ويركع أو يسجد ليتمثّل ماهو السرّ في مرحلة التنزّل، كما أنّ انحناء ظهره ومدّ عنقه للضرب ونحوه وإن كان ركوعاً أو سجوداً لله تعالى ولكنّه بالقياس إلى أعداء دين الله تعالى قيام واعتدال، كما أنّ القيام نفسه وإن كان للذبّ عن الدين قياماً ولكنّه بالقياس إلى القيّوم المحض انخفاض وانحطاط، حسبما يُستفاد من قول مولى الموحّدين عليه السلام: «... غنى كلّ فقيرٍ، وعزّ كلّ ذليلٍ، وقوّة كلّ ضعيفٍ، إذ كلّ شيءٍ له داخر وساجدٌ، ولا يملك شيء لشيءٍ نفعاً ولا ضرّاً»(٢).

فالقويّ بالقياس إليه تعالى ضعيف أوّلاً، وبالقياس إلى إحياء أمره والدفاع عن دينه وإن كان قويّاً ولكن لا بالذات وبالأصالة، بل بالعرض والتبع ثانياً؛ لأنّ قوّته كانت بالله الّذي هو قوّة كلّ ضعف، فلا يلتبس الأمر على أحدٍ بأن يرى نفسه مقتدراً، بل على الإنسان أن يعقل أوّلاً، ويقتديه جميع شؤون إدراكه وتحريكه الّتي هي شيعة العقل وأُمّته ثانياً، بأنّه ـ بحول الله تعالى وقوّته ـ يقوم ويقعد، ويعتدل، وينحني، ويذبّ ويصول، وما إلى ذلك من الأوصاف الّتي يكون بعضها بالقياس

(١) نهج البلاغة: الخطبة «٦٥».

(٢) نهج البلاغة: الخطبة «١٠٩».

إلى الله تعالى، وبعضها بالنسبة إلى الذبّ عن حُرم دينه.

وحيث إنّ الركوع وكذا السجود لله سبحانه من الأجزاء الهامّة للصلاة وتمثّلٌ للتذلّل في فنائه فلذا قد يُؤمر العبد بالصلاة نفسها كما في غير واحدةٍ من الآيات الآمرة بها، وبإقامتها، وقد يُؤمر بالركوع والسجود كما في قوله تعالى: «يا أيُّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تُفلحون»[1].

ولـمّا كان كلّ واحدٍ من الركوع والسجود تخضّعاً فعليّاً ـ قد قرّر في كلّ واحدٍ منهما ما هو التخضّع القوليّ ـ فلذا شرع فيهما التسبيح حسبما في العلل في جعل التسبيح فيهما من التعليل بأن يكون العبد مع خضوعه وخشوعه وتعبّده وتورّعه واستكانته وتذلّله وتواضعه وتقرّبه إلى ربّه مقدّساً مُمجّداً شاكراً لخالقه ورازقه...[2].

وقد ورد في تعدّد السجود وذكره الخاصّ مايشهد لما مرّ، حيث إنّه سُئل أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ عن معنى السجود؟ فقال عليه السَّلام: «اللهمّ منها خَلقتني، يعني: من التراب، ورفعُ رأسك من السجود معناه: منها أخرجتني، والسجدة الثانية: وإليها تُعيدني، ورفعُ رأسك من السجدة الثانية: ومنها تُخرجني تارةً أُخرىٰ، ومعنى قوله: سبحان ربّي الأعلى وبحمده: فسبحان: أنفة لله، وربّي: خالقي، والأعلى: أي عَلا وارتفع في سماواته حتّى صار العباد كلّهم دونه، وقهرهم بعزّته، ومن عنده التدبير، وإليه تعرج المعارج»، وقالوا عليهم السَّلام أيضاً في علّة السجود مرّتين: «إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لمّا أُسريَ به إلى السماء ورأى عظمة ربّه سجد، فلمّا رفع رأسه رأى من عظمته ما رأىٰ، فسجد أيضاً فصار سجدتين»[3].

فالمصلّي العارف بالسرِّ يجعل ما ذُكر أو يذكر في توجيه أحكام الصلاة وأقوالها

---

(١) الحجّ: ٧٧.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٦٥، عن علل الشرائع: ص٥٧٠.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٦٥ ـ ٦٦.

وأفعالها ذريعةً إلى شهودما هوالمخزون عندالله، المذخور لخواصّ أوليائه، من الأسماء الحُسنى والصفات العليا، ثمّ يصير إليها بعد أن سار إليها، إذ السير مقدّمة للصيرورة الّتي هي السرّ الواقعيّ للصلاة، وما دون ذلك فكلّ ماقيل أو يقال لها فهي حِكَمٌ وآداب وسُنن لامساس لها ذاتاً بما هو سرّ الصلاة الّذي هو الأمر العينيّ التكوينيّ، وأينَ هو من المفاهيم الذهنيّة، أو الأحكام الاعتبارية الّتي لا أثر لها في الخارج عن نشأة الاعتبار؟

وحيث إنّ المصلّي يطوف حول كعبة العزّة بذلّته، وعرش الملكوت بالهوان، وكرسيّ الجبروت بالمهان، ولدى الله السبحان بالصغار فلذا لايزين أحواله في الصلاة، فهو عبدٌ داخر في الحالات كلّها، وبذلك يندرج تحت قوله تعالى: «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم...»[(١)].

كما أنّ الّذي يقدر على القيام ولا يعجز عنه وكذا الّذي يقدر على القعود ويعجز عن القيام، وهكذا القادر على الاضطجاع أو الاستلقاء العاجز عن القعود مندرج تحته، حسبما روي عن مولانا أبي جعفر ـ عليه السَّلام ـ أنّه قال: «الصحيح يصلّي قائماً وقعوداً، المريض يصلّي جالساً، وعلى جنوبهم: الّذي يكون أضعف من المريض الّذي يصلّي جالساً»[(٢)]. وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «المريض يصلّي قائماً، فإن لم يستطع صلّى جالساً، فإن لم يستطع صلّى على جنبه الأيمن، فإنْ لم يستطع صلّى على جنبه الأيسر، فإن لم يستطع استلقىٰ وأومأ إيماءً وجعل وجهه نحو القبلة، وجعل سجوده أخفض من ركوعه»[(٣)]. وبذلك يظهر: أنّ الخضوع الّذي هو روح الصلاة متجلٍّ في جميع أحوالها، وهكذا في جميع أفرادها. نعم، للركوع والسجود خصّيصة تختصّ بهما، حيث ورد: «أنّ العبادة العظمى هي الركوع والسجود»[(٤)]،

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) و (٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٧٢ - ٧٦.

(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ١٩٣.

وهما متلازمان؛ لأنّه لا يكون صلاة فيها ركوع إلّا وفيها سجود[١].

وكما أنّ تأويل مدّ العنق هو الإيمان بالله ولو ضرب العنق فكذلك تأويل أصل الركوع هو ذاك ، حسبما ورد عن أمير المؤمنين عليه السَّلام: ما معنى الركوع؟ فقال عليه السَّلام: «معناه: آمنت بك ولو ضُربت عنقي»[٢]، ويلائمه الذكر الندبيّ الوارد فيه كما عن مولانا أبي جعفر عليه السَّلام: «إذا أردت أن تركع فقل وأنت مُنتصبٌ: الله أكبر، ثمّ اركع وقل: اللّهمّ لك ركعتُ، ولك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وأنت ربّي، خشع لك قلبي وسمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي ومخّي وعصبي وعظامي وما أقلّته قدماي، غير مستنكفٍ ولا مستكبرٍ ولا مستحسرٍ، سبحان ربّي العظيم وبحمده...»[٣].

والفرق بين أصل الركوع ومدّ العنق فيه بعد أن كان تأويلهما المشترك هو الإعلام بالإيمان ـ ولو بلغ ما بلغ ـ هو التفاوت في الإعداد، وتهيئة المبادئ والمقدّمات، وكما أنّ الركوع تخشّع لله تعالى كذلك رفع الرأس منه تواضع[٤] له تعالى، وانتصاب للامتثال حسبما مرّ، وللاهتمام بالركوع والسجود في الصلاة.

قال إسحاق بن عمّار: سمعت أباعبدالله ـ عليه السَّلام ـ يعظ أهله ونساءه وهو يقول لهنّ: «لا تقلن في ركوعكنّ وسجودكنّ أقلّ من ثلاث تسبيحات، فإنكنّ إن فعلتُنّ لم يكن أحسن عملاً منكنّ»[٥].

والميز بين الركوع والسجود بعد أن كان سرّهما المشترك هو التذلّل في فناء المعبود والخضوع له هو: أنّ السجود لكونه أخفض تمثّل لما هو أقرب إلى الله سبحانه؛ لأنّ العبد كلّما تقرّب بالتواضع كان وصوله أكثر، ولذا ورد في غير واحدٍ من النصوص أنّه: «أقرب ما يكون العبد من الله ـ عزّوجلّ ـ وهو ساجد مستشهداً

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص١٩٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٠٩.

بآية سورة «العلق» الّتي هي من سور العزائم، إذ فيها قد أُمر بالسجدة والتقرّب معاً[١]، وللاهتمام بالسجود سُمّي المصلّىٰ مسجداً (إذا كان له عنوان خاصّ) وجعل المسجد الَّذي سمّي بذلك لرعاية أهمّ أجزاء الصلاة مبدأً للإسراء، حيث قال سبحانه: «سُبحان الَّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الَّذي باركنا حولهُ»[٢]، وهكذا جُعل مبدأً للمعراج الَّذي ابتدئ من المسجد الأقصى وانتهي إلى «ثمَّ دنا فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى»[٣]، كما أنّ أهمّ ما شوهد في المعراج وتمثّل هنالك هو نجوى العبد والمولى في كسوة الصلاة الّتي صلّاها العبد تجاه مولاه بأمره وإرشاده، ومن ذلك صارت الصلاة معراجاً للمصلّي المناجي ربّه كما تقدّم.

وممّا يرشد إلى الاهتمام بالسجود هو: أنّ الله الَّذي يبصر كلّ شيءٍ لا بجارحةٍ وإن كان بصيراً بالإطلاق إلّا أنّه تعالى يَعتدّ بخصوص القيام لله تعالى والسجدة له، حيث قال تعالى: «الَّذي يراكَ حين تقوم * وتقلّبك في الساجدين»[٤]. ولا مرية في أنّ لذكر السجدة ـ كالقيام لله ـ خصوصية، نحو: أنّ الله الَّذي يرىٰ كلّ شيءٍ يصرّح برؤيته تعالى حالاً خاصّاً من أحوال العبد الّتي تبعّده من مولاه، قبال تلك الحالة الخاصّة الّتي كانت تقرّبه منه تعالى، حيث قال تعالى: «ألم يَعلم بأنَّ الله يرىٰ»[٥] وذلك ترغيب إلى الحياء من الله، فوق ترهيبه من عقوبته تعالى بالنار. والغرض: أنّ إبصار الله تعالى بدون جارحةٍ يعمّ كلّ شيءٍ، إلّا أنّ الاهتمام بأمرٍ مرغوبٍ فيه، أو مرهوبٍ عنه يوجب التصريح بأنّ الله يراه، ومن هذا القبيل هو تعرّض القيام لله مع القائمين، والسجود له تعالى مع الساجدين، حيث إنّ كلّ واحدٍ منهما بخصوصه مرئيٌّ له تعالى حسبما دلّت عليه الآية المارّة الذكر.

وممّا يُنبّه إلى الاعتداد بالسجود هو: أنّ الله سبحانه لم يكرّم آدم ـ عليه السَّلام ـ

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢٢٥.

(٢) الإسراء: ١.

(٣) النجم: ٨ و٩.

(٤) الشعراء: ٢١٨ و ٢١٩.

(٥) العَلق: ١٤.

أعظم من أمر الملائكة بالسجود له[١] وإن لم تكن تلك السجدة إلّا عبادة لله وطاعة له، كما أنّ الأمر بالتوحيد العبوديّ، ومدار النهي عن الشرك العباديّ هو: الأمر بالسجود لله، والنهي عن السجود لغيره تعالى، كما أنّ أساس عبادة الأشياء كلّها وطاعتها له تعالى هو: السجود حسبما دلّ عليه قوله تعالى: «ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض»[٢].

ثمّ إنّ الاعتناء بأمر المعاد قد أوجب أن يستدلّ الله تعالى له تارةً، ويستشهد له أُخرى، ويُمثّل له ثالثة.

أمّا الاستدلال: فهو المستفاد من غير واحدةٍ من الآيات الدالّة على إطلاق القدرة من ناحية الفاعل، وإمكان الإعادة كالبدء من ناحية القابل. وأمّا الاستشهاد: فهو المستنبط من غير واحدة من الآيات الدالّة على أنّ وزان الموت والبعث هو وزان النوم واليقظة، نحو قوله تعالى: «وهُوالَّذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جَرحتم بالنهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّىً ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون»[٣]. وأمّا التمثيل له:فهو ما تقدّم من تأويل السجود بأنّ الإنسان من تراب، ثمّ يعود فيه، ثمّ يُبعث منه، فالمصلّي الساجد لله في كلّ ركعةٍ مرّتين يتمثّل له المعاد الّذي إليه يصير، فمن عثر على سرّ الصلاة يقف على مواقف القيامة ويراها كأنّها قامت، وتدعو نارها مَن أعرض وتولّى، فيجدّ ويجاهد ويجتهد في إخمادها، كما هو المأثور عن الإمام زين العابدين ـ عليه السَّلام ـ من وقوع حريق في حال صلاته عليه السَّلام، ولم يلتفت إليه حتّى فرغ من صلاته، وقيل له عليه السَّلام: ما الذي ألهاك عنها؟ قال عليه السَّلام: ألهتني عنها النار الكبرى[٤]. والغَرَض: أنّ السجدتين تمثّلان للبدء والعود، فتدبّر تجد سرّه.

وممّا يشهد للاستناد بالسجود في نيل الفضل الخاصّ من الجنّة والحشر مع أهل

---

(١) طه: ١١٦.
(٢) النحل: ٤٩.
(٣) الأنعام: ٦٠.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ج٤ ص١٥٠.

العصمة ونحو ذلك هو ماروواه الكلينيّ رحمه الله، عن أبي عبدالله -عليه السَّلام- أنّه قال: مرّ بالنبيّ رجلٌ وهو يعالج بعض حجراته، فقال: يا رسول الله، ألا أكفيك، فقال عليه السَّلام: شأنك، فلمّا فرغ قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: حاجتك؟ قال: الجنّة، فأطرق رسول الله -صلّى الله عليه وآله- ثمّ قال: نعم، فلمّا ولّى قال له: يا عبدالله أَعِنّا بطول السجود[١]، لدلالته على أنّ للسجود وطوله دخلاً في الوصول إلى طول الله وفضله الخاصّ.

كما أنّ قوماً أتوا رسول الله -صلّى الله عليه وآله- وقالوا: يا رسول الله، اضمن لنا على ربّك الجنّة، قال: فقال صلّى الله عليه وآله: «على أن تعينوني بطول السجود»[٢] ويلائمه أيضاً ما قاله -صلّى الله عليه وآله- لربيعة بن كعبٍ حيث سأله -صلّى الله عليه وآله- أن يدعو له بالجنة: «أعنّي بكثرة السجود»[٣] ونحوماقاله-صلّى الله عليه وآله- لرجلٍ جاءه فقال: يارسول الله، كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أكثر السجود فإنّه يحطّ الذنوب كما تحتّ الريح ورق الشجر»[٤] إذ المستفاد من نطاق هذه الطائفة الّتي أتينا ببعضها هو: أنّ لأصل السجود ولطوله ولكثرته سهماً في نيل الشفاعة بالوصول إلى الغفران عن الذنوب، وإلى الرضوان الإلهيّ، وهو الجنّة بدرجاتها، ومعنى قول الرسول صلّى الله عليه وآله: «أعنّي...» هو: أنّ العبد يستعين بالصلاة كما قال سبحانه: «واستعينوا بالصبر والصلاة»[٥]، وهذه الاستعانة تكون لأُمورٍ شتّى، منها: الوصول إلى الشفاعة، ومن أهمّ أجزاء الصلاة الّتي بها يُستعانُ هو السجود، فمن صلّى وأطال سجوده فقد استعان للجنّة بالشفاعة بالصلاة والسجود، كما أنّ من أطال السجود فقد استعان به للحشر مع الرسول -صلّى الله عليه وآله- حسبما يُستفاد ممّا رواه الديلميّ، عن أمير المؤمنين -عليه السَّلام- أنّه جاء إلى النبيّ -صلّى الله عليه وآله- فقال: علّمني عملاً يحبّني الله، ويحبّني المخلوقون، ويثري الله مالي، ويصحّ بدني، ويطيل عمري،

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢٢٧.

(٥) البقرة: ٤٥.

ويحشرني معك، قال صلّى الله عليه وآله: «هذه ستّ خصالٍ تحتاج إلى ستّ خصالٍ، إذا أردت أن يحبّك الله فَخفهُ واتّقه، وإذا أردت أن يحبّك المخلوقون فأحسن إليهم وارفض ما في أيديهم، وإذا أردت أن يُثري الله مالك فزكّه، وإذا أردت أن يصحّ الله بدنك فأكثر من الصدقة، وإذا أردت أن يطيل الله عمرك فصِل ذوي أرحامك، وإذا أردت أن يحشرك الله معي فأطل السجود بين يدي الله الواحد القهار»[١].

وحيث إنّ لطول السجود وكثرته فضلاً خاصّاً عدا ما لأصل السجود من الفضل، كان بين عيني عليّ بن الحسين السجاد ـ عليه السَّلام ـ سجّادة كأنّها ركبة عينٍ[٢]، وكانت مواضع سجوده ـ عليه السَّلام ـ كمبارك البعير[٣].

وروى ابن طاووس، عن السجّاد ـ عليه السَّلام ـ أنّه برز إلى الصحراء فتبعه مولىً له، فوجده ساجداً على حجارةٍ خشنةٍ، فأحصى عليه ألف مرّةٍ «لا إله إلّا الله حقّا حقّاً، لا إله إلّا الله تعبّداً ورقّاً، لا إله إلّا الله إيماناً وصدقاً»، ثمّ رفع رأسه[٤].

ولمّا كان لطول السجود وكثرته أثَرَاً هامّاً كثر سجود إبراهيم عليه السَّلام، ولذا اتّخذه الله خليلاً له كما قاله الصادق عليه السَّلام[٥]. وطال سـ[illegible] أ[illegible] عبدالله الصادق ـ عليه السَّلام ـ حسبما قال منصور الصيقل: حججت ف[illegible] المدينة، فأتيت قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فسلّمت عليه، ثمّ ال[illegible] فإذا بأبي عبدالله ـ عليه السَّلام ـ ساجدٌ، فجلست حتّى مللتُ، ثمّ قلت: لأسَبِّحنَّ مادام ساجداً، فقلت: سبحان ربّي العظيم وبحمده، أستغفر الله ربّي وأتوب إليه ثلا ثمائة مرّةٍ ونيفاً وستّين مرّة، فرفع رأسه ثمّ نهض[٦]. وقال حفص بن غياث[٧]: رأيت أبا

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٢٣٢.

(٢) و (٣) و (٤) المصدر السابق: ص٢٣١.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٢٨.

(٦) و(٧) المصدر السابق: ص٢٣٥.

عبدالله -عليه السَّلام- يتخلّل بساتين الكوفة، فانتهى إلى نخلة فتوضّأ عندها، ثمّ ركع وسجد، فأحصيت في سجوده خمسمائة تسبيحةٍ، ثمّ استند الى النخلة، فدعا بدعواتٍ ثمّ قال: ياحفص، إنّها والله النخلة التي قال الله -عزّوجلّ- لمريم عليها السَّلام: «وهُزّي إليكِ بجذع النخلةِ تُساقط عليكِ رطباً جنيّاً»(١).

ومن هنا قال الصادق عليه السَّلام: «السجود منتهى العبادة من بني آدم»(٢)، وقال سلمان الفارسيّ: «لولا السجود لله ومجالسة قوم يتلفّظون طيب الكلام كما يتلفّظ طيب الثمر لتمنّيتُ الموت»(٣). وقد ورد في مدح الساجدين قوله تعالى: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود»(٤) لأنّ السجود الطويل أو الكثير يؤثّر في الجبهة، فتنقش فيها سِمة السجدة، وهكذا ورد في قدح الفاقدين لسمة الإيمان والسجود قول أمير المؤمنين عليه السَّلام: «إنّي لأكره للرجل أن أرى جبهته جلحاء ليس فيها أثر السجود»(٥)، والجلحاء هي الجبهة الّتي انحسر شعرها عن جانبي الرأس. ومن طال سجوده أو كثر ينحسر شعره، أو تتّسم جبهته بما وصفه الله حسبما مرّ، وقد قال السجّاد -عليه السَّلام- لقومٍ يزعمون التشيّع لأهل البيت عليهم السَّلام: «... أين السمة في الوجوه؟ أين أثر العبادة؟ أين سيماء السجود؟ إنّما شيعتنا يُعرفون بعبادتهم وشعثهم، قد قرحت منهم الآناف، ودثرت الجباه والمساجد»(٦).

والسرّ في ذلك كلّه -عدا ماتقدّم من أنّه تمثّل للبدء من التراب، وللعود فيه، وللنشور منه- هو ما قاله النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إنّ الأرض الّتي يسجد عليها المؤمن يضيئ نورها إلى السماء»(٧)، ومن المعلوم أنّ الأرض الغبراء الّتي تُقلّ الساجد إنّما تُضيئ للسماء الخضراء الّتي تظلّه ببركة السجدة الّتي سرّها الضياء، فإذا كان السجود ضياء كان الساجد أكثر ضياءً؛ لأنّ خيراً من الخير فاعله، كما قاله

(١) مريم: ٢٥.

(٢) و (٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٢٢٨.

(٤) الفتح: ٢٩.

(٥) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٢٢٩.

(٦) المصدر السابق: ص ٢٣٢.

(٧) المصدر السابق: ص ٢٣٧.

عليّ «فاعل الخير خيرٌ منه»[١] إذ المؤثّر أقوى من أثره، والفعل أضعف من فاعله، فإذا كان السجود وصفاً بعنوان الحال للساجد، ثمّ صار ملكةً له، ثمّ صار فصلاً مقوّماً لهويّته الأصليّة بمعنى: ما ليس بخارجٍ منه، لا لماهيته الاعتباريّة يصير الساجد نورانيّاً جعل له نورٌ يمشي به في الناس، وكفى بذلك سرّاً للسجود، ولعلّ ماحكم بأنّ الساجد شكراً يرى وجه الله تعالى[٢] فإنّما هو بذلك الضياء.

وقد ورد اختصاص السجود لله تعالى، وأنّ ما أتى به الملائكة لآدم عليه السَّلام، وكذا ما فعله يعقوب عليه السَّلام و ولده ليوسف عليه السَّلام فإنّما كان ذلك كلّه سجوداً لله، وطاعةً له تعالى، وائتماراً بأمره سبحانه، ومحبّةً لآدم وفضيلةً له، وكذا تحيّةً ليوسف وتكرمةً له عليه السَّلام[٣].

فتبيّن في هذه الصلة أُمور:

الأوّل: أنّ لفعل الصلاة كذكرها سرّاً، وأنّ الإنسان كونٌ جامع للحضرات بأسرها، وأنّ تأويل القيام حال الصلاة هو الإعلام بالاستقامة تجاه أيّ عدوّ.

الثاني: أنّ من أحيا كلمة الله فهو قائم وإن كان قاعداً، ومن قصّر في إحيائها فهو قاعد وإن كان قائماً.

الثالث: أنّ القيام إنّما هو تمثّل للحالة الّتي بها يقدر المؤمن على الذبّ عن الوليّ، أو الصول على العدوّ.

الرابع: أنّ القائم بأمر الله تتنزّل عليه الملائكة المبشّرة الّتي قد يمكن أن يشاهدها السالك على صراط الاستقامة.

الخامس: أنّ سرّ القيام منزّه عن الحالة الجسميّة، كما أنّ القيام بمعنى: تحمّل أعباء الامتثال منزّه عنها وإن لم يخلُ من حالةٍ ما بدنيّة.

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم ٣٢.

(٢) روضة المتقين: ص ٣٨٨، والمحجّة البيضاء: ج١ ص٣٤٨.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

السادس: أنّ خشوع القلب يتجلّى في الجوارح؛ لأنّها أمته، وهو ـ أي: القلب ـ إمامها.

السابع: أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ إذا كثرت همومه فإنّه يَمسّ لحيته في الصلاة.

الثامن: أنّ الركوع وكذا السجود تمثّل للانقياد لله تعالى، وأنّ ما كان قياماً لمحاربة عدوّ الله فهو بعينه قعود وانخفاض لدى الله سبحانه، إذ كلّ قوّةٍ بالقياس إليه تعالى ضعف، كما أنّ القعود لله قيام على عدوّه.

التاسع: أنّ الاهتمام بالركوع وكذا السجود قد أوجب أن يؤمر بهما كما يؤمر بالصلاة، وأنّ ذكر الركوع وكذا السجود مناسب لفعلهما.

العاشر: أنّ السجود وتعدّده تمثّل للبدء من التراب، والعود فيه، والنشور منه.

الحادي عشر: أنّ المناجي ربّه لا ينساه في حالٍ من الأحوال، فلذا يذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

الثاني عشر: كما أنّ مدّ العنق واعتدال الظهر في الركوع تمثّل للانقياد التامّ كذلك الذكر الندبيّ المأثور في الركوع شاهد له.

الثالث عشر: أنّ ميز السجود عن الركوع بعد اشتراكهما في أصل التذلّل هو: أنّ السجود لكونه أخفض فهو مُعدّ لأن يكون العبد أقرب من مولاه.

الرابع عشر: أنّ الاهتمام بالسجود قد أورث أن يُسمّى مكان الصلاة بالمسجد دون غيره من الأجزاء، وأنّ المسجد هو المبدأ للإسراء أوّلاً، وللمعراج ثانياً.

الخامس عشر: أنّ للسجود أثراً يُهمّه الشرع بالتعرّض له دون غيره من أحوال الصلاة، وأنّ الله سبحانه كرّم آدم بأمر الملائكة بالسجود له، كما أنّه نهى عن السجود لغيره تعالى، وأنّ السجود ـ كما تقدّم ـ تمثّل للمعاد قبال الاستدلال له، والاستشهاد عليه.

السادس عشر: أنّ لطول السجود إعانةً للشفيع، وأثراً في دخول الجنّة، كما أنّ

لكثرته أثراً هامّاً في حطّ الوزر، وهكذا له أثر في الحشر مع الرسول صلّى الله عليه وآله.

السابع عشر: أنّ آثار السجدة الطويلة والكثيرة كانت مشهودةً بين عيني السجّاد عليه السَّلام.

الثامن عشر: أنّ الله سبحانه قد اتّخذ إبراهيم خليلاً له لطول السجود وكثرته.

التاسع عشر: أنّ الصادق ـ عليه السَّلام ـ قد طال في سجوده، وأنّ السجود منتهى العبادة، وأنّ المؤمن ينبغي أن يتّسم بالسجود، ويكره أن تكون جبهته جلحاء، وأنّ الشيعة هم الّذين سيماهم في وجوههم من أثر السجود.

الموفى عشرين: أنّ مسجد المصلّي يُضيئ لأهل السماء، وأنّ الساجد قد جُعل له نور يمشي به في الناس.

الصلة الخامسة

في سرّ القنوت والتشهّد والتسليم و...

لا ريب في أنّ النظام التكوينيّ إنّما هو على الطاعة والهداية، ولا مجال للعصيان والضلالة فيه؛ لأنّ زمام كلّ موجودٍ تكوينيٍّ إنّما هو بيد الله سبحانه، وهو تعالى على صراطٍ مستقيم، وكلّ ما كان زمامه بيد من هو على الصراط السويّ فهو مهتدٍ البتّة، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: «ما من دابّةٍ إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم»[1] لدلالته على الأصلين المذكورين، وحيث إنّه لا مجال للتمرّد في التكوين يكون كلّ موجودٍ ممكناً فهو يأتي ربّه طائعاً، كما يدلّ عليه قوله تعالى: «فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرهاً قالتا أتينا طائعين»[2]. والذي يشاهد من الضلالة والغواية فإنّما هو في التشريع، حيث إنّ المكلّف مختار في طيّ السبيل السويّ أو الغويّ، وإنّما العبادة ـ سيّما الصلاة ـ قد شرّعت لتطابق النظامين، وقد شرّع في الصلاة أحوال تمثّل النظام التكوينيّ من الطاعة والهداية.

إنّ من تلك الأحوال الممثّلة للخضوع هو: القنوت، لأنّه ابتهال وتضرّع، وتبتّلٌ تجاه الربّ الجليل، وحيث إنّ الله جواد لا يخيّب آمله ولا يردّ سائله، قال أبو عبدالله عليه السّلام: «ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبّار إلّا استحيى الله ـ عزّوجلّ ـ أن يردّها صفراً حتّى يجعل فيها من فضل رحمته مايشاء، فإذا دعا أحدكم

(١) هود: ٥٦.

(٢) فصّلت: ١١.

فلا يـردّ يده حتّى يمسح على وجـهه»[١] هـذا عدا مايذكر في الـقنـوت ممّا يدلّ على ضراعة العبـد ومسكنته وكـونه ذا متربةٍ لاصقاً بـه، غير قادرةٍ على القيام عنها، نحوما في دعـاء قنوت الوتـر «... ربِّ أسأت...، فهذه يداي يـاربِّ جـزاءً بما كسبت، وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت...»[٢].

وللاهتـمام بالقـنوت الممـثّل لما هو السرّ التكوينيّ، المورث للتطـابق بينه وبين النظام التشريعيّ قال مولانا الحسين بن علي عليهماالسلام: «رأيت رسول الله ـصلّى الله عليـه وآلـه ـ يقنـت في صـلا تـه كـلّهـا وأنـا يـومـئذٍ ابن ستّ سنين»[٣] فـهو ـعليه السَّلام ـ بحيث يحضر في صلوات جدّه ـصلّى الله عليه وآله ـ كلِّها، وكان زكيّاً وذكيّاً، ومراقبـاً ومحاسباً، حتّـى يتبيّـن لـه ما يأتيـه جـدّه صلّى الله عليـه وآله، إذ الناس مـأمورون بـأخذ الأحكـام من سنّته ـصلّى الله عـليه وآلـه ـ وسيـرته. ولهذا الاعتداد بالقنوت قـال مولانا الصادق عليه السَّـلام: «من ترك القنوت متعمّداً فلا صلاة له»[٤]، أي: لاكمال لهـا؛ لأنّ الصـلاة إنّما هـي للهداية الى مـا هـو الـنظام التكوينيّ من الطـاعة التامّة والهداية الـبالغة، والقنوت الّـذي هو مظهر تامّ للتـبتُّل والابتهال موجب لكمالها، فإذا ترك القنوت فيها فتفقد ـحينئذٍ ـ كمالها النهائيّ.

وأمّا التشهّد فأصله قد تمثّل في المعراج، حيث إنّه لمّا أراد رسول الله ـصلّى الله عليـه وآله ـ ليقوم قيل: يـا محمّد، اجلس، فجلس، فأوحى الله إليه: يـا محمَّد، إذا ما أنـعمت عـليك فسـمِّ بـاسمي، فـأُلهِمَ أن قـال: بسـم الله، وبالله، ولا إله إلّا الله، والأسماء الحسنىٰ كلّها لله، ثُمّ أوحـى الله إليه: يامحمَّد، صلِّ على نفسك وعلى أهل بيتك، فقال صلّى الله عليه وآله: صلّى الله عليّ وعلى أهل بيتي[٥].

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٣١٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٢٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٣.
(٤) المصدر السابق: ص ٣٠٢.
(٥) المصدر السابق: ص ٣٣٩.

وتأويل التشهّد حسبما في رواية جابر هو تجديد الإيمان، ومعاودة الإسلام، والإقرار بالبعث بعد الموت. وتأويل قراءة التحيّات هو تمجيد الربّ سبحانه وتعظيمه عمّا قال الظالمون ونَعته الملحدون(١).

وقد تقدّم أنّ سرَّ تعدّد السجود هو الإقرار بالبدء من التراب والعود فيه والنشور منه، فإذا جلس المُصلّي للتشهّد فكأنّه قد انبعث من مرقده، فيقرّ بالبعث بعد الموت، ويتكلّم هنا بالتعليم الإلهيّ مايشاهده هنالك بعد الانبعاث من الجَدث، فكما أنّ للقرآن تأويلاً فيأتي ذلك التأويل يوم القيامة كما أخبره الله تعالى كذلك للتشهّد سرّ عينيّ، وتأويل تكوينيّ يتجلّى ذلك السرّ يوم القيامة؛ لأنّ في ذلك اليوم تُبلى السرائر والأسرار، كما أنّ النظام الاعتباريّ ينطوي بساطه ببسط النظام الحقيقيّ.

وللجلوس حال التشهّد كيفيّة مندوب إليها، وهو التورّك برفع الرجل اليمنى على اليسرى، وتأويله كما في مرسلة الفقيه: «اللّهمّ أمِتِ الباطل وأقم الحقّ»(٢)، لأنّ اليُمنى مظهر الحقّ والصدق، واليسرىٰ كناية عن الباطل والكذب، ولقد روعي هذا الأمر في الآداب والسنن لتكون كلمة الله هي العليا، وإلّا فالمؤمن كلتا رجليه يُمنى، كما أنّ كلتا يديه كذلك؛ لأنّه من أصحاب اليمين والميمنة، كما أنّ غير المؤمن كلتا رجليه يُسرى وكلتا يديه كذلك، والأصل في ذلك كلّه ما ورد في حقّ الله سبحانه من أنّ كلتا يديه يمين، مع أنّه لا يد ولا أيّة جارحة أُخرى هنالك لتنزّهه تعالى عمّا يُدركه الطرف أو يحسّه الحسّ.

وحيث إنّ ولاية أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ هي العلّة الوسطى لدوام الفيض من الله الّذي لا يشركه في أمره أحدٌ ولا شيء أمر بلحاظها في التشهّد، كما أمر بعنايتها في افتتاح الصلاة، وكما أنّ أصل الصلاة لا تُقبل بدون الولاية كذلك صلاة من ترك التصلية على أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ مردودة وإن كان المصلّي وليّاً

---

(١) و(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٣٤٠.

لهم، كما يستفاد من رواية جابر الجعفيّ حيث قال: سمعت أبا عبدالله ـعليه السَّلام- يقول: «إذا صلّى أحدكم فنسي أن يذكر محمَّداً وآله في صلاته سلك بصلاته غير سبيل الجنّة، ولا تقبل صلاة إلّا أن يُذكر فيها محمَّد وآل محمَّد صلّى الله عليه وآله»(١).

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «من صلّى صلاةً لم يصلِّ فيها عليَّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه»(٢).

وفي رواية زرارة، عن الصادق عليه السَّلام: «أنّ من تمام الصوم إعطاء الزكاة كالصلاة على النبيّ -صلّى الله عليه وآله- من تمام الصلاة»(٣) وحيث إنّ الصلاة على النبيّ -صلّى الله عليه وآله- بدون الصلاة على أهله بتراء فالصلاة عليهم أجمعين من تمام الصلاة، كما أنّ بالولاية كمل الإسلام، وتمّ نصاب النعمة الإلهيّة، وصار الإسلام الولائيّ مرضيّاً لله سبحانه حسبما في آيةٍ من المائدة(٤).

ثمّ إنّ للقيام من السجدة أدباً له تأويل، وله ذكر ذو سرّ، أمّا القيام من السجدة في الركعة الثانية الّتي لها جلوس وتشهّد فمسبوق بالقعود، ولا كلام فيه، وأمّا في الركعة الأُولى وكذا الثالثة من الرباعيّة اللتين لا تشهّد فيهما فليس للمصلّي أن ينهض من السجود إلى القيام بلا جلوس، بل عليه أن يجلس مطمئناً، ثمّ يقوم، كما في التهذيب، عن أمير المؤمنين -عليه السَّلام- حيث قال: «إنّما يفعل ذلك -أي: النهوض بلا جلوس- أهل الجفاء من الناس، إنّ هذا -أي: الجلوس ثمّ النهوض- من توقير الصلاة»(٥)، وفي المستدرك عن مولانا أبي الحسن عليه السَّلام: «إذا رفعت رأسك من آخر سجدتك في الصلاة قبل أن تقوم فاجلس جلسةً، ثمّ بادر بركبتك إلى الأرض قبل يديك، وابسط يديك بسطاً واتّكِ عليهما ثمّ قم، فإنّ ذلك

---

(١) و (٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٣٣٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٣٦.

(٤) وهي من قوله تعالى: «اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ...».

(٥) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢٨٦.

وقار المرء المؤمن الخاشع لربّه، ولا تطيش من سجودك مبادراً إلى القيام كما يطيش هؤلاء الأقشاب في صلاتهم»[١].

إنّ الصلاة الاعتباريّة المعهودة تحكي واقعيّتها المعنيّة الّتي لها آثار جَمّة، فتكون مكرّمة، وكرامتها تقتضي توقيرها، والجلوس مطمئناً حافظ لتوقيرها، فللجلوس تأويلٌ يستظهر عند ظهور واقعيّة الصلاة، وهو يوم يطوى فيه بساط الاعتبار كطيّ السجلّ.

وأمّا الذكر حال القيام من الجلوس فهو: بحول الله تعالى وقوّته أقوم وأقعد[٢]، وسرّه هو: أنّ النظام العينيّ التكوينيّ الّذي به يعيش الإنسان المتفكّر المختار منزّهٌ عن دم إفراط التفويض، ومُبرّأ عن روث تفريط الجبر، بل هو لَبنٌ خالص سائغ للشاربين، لكونه منزلةً بين تينك المنزلتين المشؤومتين، فالمفوّض يقول: لا حول ولا قوّة لله فيما يفعله الإنسان في شؤونه الإراديّة، والجبريّ يقول: لا حول ولا قوّة إلّا لله في ذلك، والقائل بالاختيار، المصون عن ذينك المحذورين يقول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، فهو يثبت للإنسان حولاً بحول الله تعالى، وقوّةً بقوّته، فالذكر الّذي يأتيه المصلّي حين النهوض إلى القيام بعد الجلوس حاوٍ لأصلٍ كلّيّ متحقّق في جميع شؤونه الإراديّة بلا خصيصةٍ له بحال الصلاة، كما لا اختصاص له بحال القيام حسبما أُخذ في متن الذكر أيضاً، إذ قعود الإنسان أيضاً بحول الله وقوّته، كما أنّ قيامه بذلك، وذلك السرّ التكوينيّ يتجلّى يوم القيامة الّتي يظهر فيها ما هو الباطن، وهنالك يتّضح بطلان طرفي المتوسّط من الجبر والتفويض، وكون المتوسّط بينهما حقّاً.

وهذا الّذي قدّمناه هو المستفاد من قول مولانا الصادق عليه السّلام: «كان أمير المؤمنين -عليه السّلام- يبرأ من القدريّة في كلّ ركعةٍ ويقول: بحول الله وقوّته أقوم

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٢٨٦.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

وأقعد»[١].

وأمّا التسليم: فأصله قد تمثّل في المعراج، حيث إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لمّا أتى بما أُمر به من الجلوس والتصلية التفت فإذا بصفوفٍ من الملائكة والمرسلين والنبيّين، فقيل: يامحمّد، سلِّم عليهم، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فأوحى الله ـ عزّوجلّ ـ إليه أنّ السلام والتحيّة والرحمة والبركات أنت وذرّيّتك[٢].

وتأويل السلام هو الترحّم كما عن أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ حيث قال: «وتأويل قولك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ترحّم عن الله سبحانه، فمعناها: هذه أمان لكم من عذاب يوم القيامة»، ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «من لم يعلم تأويل صلاته هكذا فهي خداج، أي: ناقصة»[٣].

وفي العلل: «فإن قال: فلم جعل التسليم تحليل الصلاة ولم يجعل بدلها تكبيراً أو تسبيحاً أو ضرباً آخر؟ قيل: لأنّه لمّا كان الدخول في الصلاة تحريم الكلام للمخلوقين والتوجّه إلى الخالق كان تحليلها كلام المخلوقين، والانتقال عنها، وابتداء المخلوقين في الكلام أوّلاً بالتسليم»[٤].

وأيضاً في العلل: عن الصادق ـ عليه السّلام ـ لمّا سُئل عن العلّة الّتي من أجلها وجب التسليم في الصلاة ، قال عليه السّلام: لأنّه تحليل الصلاة، (قال المفضّل بن عمر:) قلت: فلأيّ علّةٍ يُسلِّم على اليمين ولا يُسلِّم على اليسار؟ قال عليه السّلام: لأنّ الملك الموكّل الّذي يكتب الحسنات على اليمين والّذي يكتب السيّئات على اليسار، والصلاة حسنات ليس فيها سيّئات، فلهذا يُسلّم على اليمين دون اليسار، قلت: فلم لايقال: السلام عليك ، والملك على اليمين واحد، ولكن يقال: السلام عليكم؟ قال عليه السّلام: ليكون قد سلّم عليه وعلى من على اليسار، وفضل

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٦١.
(٤) المصدر نفسه: ص٦٨.

صاحب اليمين عليه بالإيماء إليه... إلى أن قال المفضّل: قلت: فلم صار تحليل الصلاة التسليم؟ قال عليه السَّلام: لأنّه تحيّة الملكين، وفي إقامة الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها وتسليمها سلامة للعبد من النار، وفي قبول صلاة العبد يوم القيامة قبول سائر أعماله، فإذا سلمت له صلاته سلمت جميع أعماله، وإن لم تسلم صلاته ورُدَّت عليه ردّ ماسواها من الأعمال الصالحة(١).

وعن معاني الأخبار، عن عبدالله بن الفضل الهاشميّ قال: سألت أبا عبدالله -عليه السَّلام- عن معنى التسليم في الصلاة ،فقال: التسليم علامة الأمن وتحليل الصلاة، قلت: وكيف ذلك جعلت فداك؟ قال: كان الناس فيما مضى إذا سلّم عليهم وارد أمنوا شرّه، وكانوا إذا ردّوا عليه أمن شرّهم، فإن لم يسلّم لم يأمنوه، وإن لم يردّوا على المسلّم لم يأمنهم، وذلك خُلقٌ في العرب، فجعل التسليم علامةً للخروج من الصلاة، وتحليلاً للكلام، وأمناً من أن يدخل في الصلاة مايفسدها، والسلام اسمٌ من أسماء الله عزّوجلّ، وهو واقع من المصلّي على ملكي الله الموكّلين به.

إنّ السلام اسمٌ من الأسماء الحسنى الإلهيّة، وهو اسمٌ فعليٌّ لا ذاتيّ، فهو ينتزع من فعل الله لا من ذاته. وحيث إنّ فعل الله صادر منه فهو خارج عنه، مفتقر إليه، فعليه لا غَروَ في إطلاقه على المظهر التامّ الإلهيّ، أي: الإنسان الكامل نحو آل البيت عليهم السَّلام، فعليه لا تنافي بين قوله تعالى: «هو الله الَّذي لا إله إلاّ هو الملك القُدُّوس السلام...»(٢) وبين ماتقدّم من تطبيق السلام على الرسول -صلّى الله عليه وآله- وآله عليهم السَّلام. ولمّا كانت الجنّة داراً لله الّذي هو السلام فصحّ أن يقال لها: إنّها دار السلام، كما أنّها بنفسها تتّصف بالسلامة أيضاً، إذ لا لغو فيها ولا تأثيم، فبذلك يظهر معنى قوله تعالى: «لَهُم دارُ السلام عند ربِّهم وهو وليُّهم بما كانوا يعملون»(٣)، ويتنزّل ذلك السلام من ربٍّ رحيمٍ، كما في سورة يس

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٦٨ .

(٢) الحشر: ٢٣. (٣) الأنعام: ١٢٧.

((آية٥٨)): ((سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم))، فمن كان من أُولي العزم وكان أعزم من غيره ـ نحو: نوحٍ عليه السّلام حيث إنّه تحمّل أعباء الرسالة ألفاً إلّا خمسين عاماً ـ كان سلام الله عليه أوسع من سلامه تعالى على غيره، إذ لم يَرد في حقّ غيره ما ورد في حقّه من السلام العالميّ؛ لأنّ القرآن قد نطق في حقّه فقط بقول الله تعالى: ((سلامٌ على نوحٍ في العالمين))(١)، وأمّا في حقّ غيره فلا يوجد فيه عنوان ((العالمين)).

والملائكة يسلّمون على المؤمنين ويقولون لهم: ((سلامٌ عليكم ادخُلوا الجنّة بما كُنتُم تعملون))(٢)، وتحيّة أهل الجنّة بعضهم لبعضٍ إنّما هي بالتسليم، كما قال الله تعالى: ((دَعواهُم فيها سبحانك اللّهمَّ وتحيّتُهُم فيها سلامٌ))(٣).

وهكذا تحيّة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لمن جاءه يتعلّم منه معالم دينه، كما قال الله تعالى: ((وإذا جاءك الّذين يُؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم))(٤)، وهؤلاء على صنفين:

أحدهما: مَن يَتسلَّم السلام من الله ويرى الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وسيطاً في إبلاغه، وهوالأوحديّ من أهل الايمان.

ثانيهما: مَن يتسلّمه من نفس الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولا يرى من هو أعلى منه وإن كان يعتقده، وهو الأوسطيّ منهم، وعلى أيّ تقديرٍ يكون مجلس دراسة الرسول صلّى الله عليه وآله ـ الّذي يُعلّم الناس الكتاب والحكمة، ويزكّيهم ـ هو مجلس السلامة، كما أنّ ليلة القدر ـ الّتي أُنزل فيها القرآن، وتنزّل الملائكة فيها بإذن ربّهم من كلّ أمرٍ سلامٌ ـ أيضاً.

والّذي لا ينبغي الذهول عنه هو: أنّ السلام الجدّيّ إنّما يتمشّى في اللقاء الجديد، فمن كان مصاحباً لشخصٍ ويكون مشغول الذكر به لا يُسلّم عليه، بخلاف مَن كان غائباً ثمّ حضر فإنّه يتمشّى منه التسليم، وحيث إنّ المُصلّي قد أُسري

---

(١) الصافّات: ٧٩.
(٢) النحل: ٣٢.
(٣) يونس: ١٠.
(٤) الأنعام: ٥٤.

وعـرج به، وكان مناجيـاً ربّـه، غائباً عن الأرض وأهلـها، بل عن ما سوى الله، فإذا أتمّ الـنجوى وأُذن له الهـبـوط الى الأرض والحشر مـع أهلـها فهـو حيـنذاك جـديد الورود، وحديث اللـقاء، فيتمشّـى منه التسليم، وأمّا المصلّي الّذي كان ساهياً عن صلا ته، مشغول السرّ بالأرض وأهـلها فلم يكن غـائباً عنهم حتّى يحدث له اللقاء، ويصحّ منه التسـليم، فلذا قال بعض الحاقّين حول المعرفة مامعناه: كيف لا يستحي المصلّي الّذي له الويل لسـهوه عن صلا ته في التسليم، ولفظه: واعلم: أنّ السلام لا يصحّ من المصلّي إلاّ أن يكون مناجياً ربّه، غائباً عن كلّ ماسوى الله...، فإذا أراد الانتقال مـن تـلك الحالة الى حـالـة مشاهدة الأكوان والجـمـاعة سلّم عليهـم سلام القـادم؛ لغيبتـه عنهـم في صـلا ته عند ربّه، فـإن كـان المصـلّي لم يزل مع الأكوان والجماعـة فكيف يسلّم عليهم؟ فهلّا استـحيىٰ هذا المصلّي حيـث يُري بسلامه أنّه كان عـنـدالله! فسلام العـارف مـن الصلاة؛ لانتـقاله مـن حـالٍ الى حال، فيسـلّم تسليمتين: تسـليمة على مَن يـنتقل عنـه، وتسليمة على مـن قدم عليه، إلاّ أن يـكون عندالله في صـلا ته فلا يسلّـم على من انتـقل عنـه؛ لأنّ الله هـو السلام، فلا يسلّم عليه[1].

فتبيّن في هذه الصلة أُمور:

الأوّل: أنّ النظام التـكـوينيّ يدور مـدار الهـداية البحتـة، بخلاف التشريـعيّ منه؛ لتطرّق الضلالة فيه؛ لتمرّد بعض الناس عمّا هداه الله إليه.

الثاني: أنّ القنوت ممثّـل لما عليه التكوين من الذلّة والضراعة لله سبحانه، وأنّ القانت غير خائبٍ؛ لأنّ المسؤول جوادٌ لا يخيّب سائله.

الثالث: أنّ رسول الله ـصلّى الله عـليه وآله ـ كان يقنـت في صلواته كلّها، وأنّ الصلاة الفاقدة للقنوت غير كاملة.

الرابع: أنّ التشـهّـد قد تمثّل أصـله في المعراج، وأُلهم الـرسول ـصلّى الله علـيه

---

(١) الفتوحات المكّيّة: ج١ ص ٤٣٢.

وآله ـ بما قاله فيه.

الخامس: أنّ تأويل التشهّد هو: تجديد الإيمان والإقرار بالبعث بعد الموت، وتأويل التحيّات هو: تعظيم الربّ عمّا نَعَتَه الملحدون.

السادس: أنّ سرّ التورّك وتأويله هو: إقامة الحقّ وإماتة الباطل.

السابع: أنّ المؤمن كلتا يديه يمين، وكلتا رجليه يُمنى؛ لأنّه مظهر لله الّذي ورد في وصفه أنّ كلتا يديه يمين.

الثامن: أنّ ولاية أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ هي العلّة الوسطى لأصل الفيض ودوامه وإن كانت العلّيّة الحقيقية منحصرّةً في الله تعالى، وأنّ الصلاة الفاقدة للصلاة عليهم ـ عليهم السّلام ـ غير مقبولة.

التاسع: أنّ للقيام من السجدة الأخيرة أدباً، وله ذكر وسرّ. وأنّ الجلوس قبل النهوض الى القيام توقيرٌ للصلاة، وتركه جفاءٌ لها.

العاشر: أنّ الجبر والتفويض تفريط وإفراط، وأنّ المنزلة الوسطى بينهما هو اللبن الخالص المصون عن دم الإفراط وروث التفريط.

الحادي عشر: أنّ قعود العبد كقيامه بالله، وأنّه لو لا حول الله تعالى وقوّته لمَا قدر العبد على القعود، كما لم يقدر على القيام.

الثاني عشر: أنّ الحوقلة الطاردة لطرفي الإفراط والتفريط جارية في جميع الشؤون بلا اختصاصٍ لها بالصلاة.

الثالث عشر: أنّ أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ كان يبرأ بالحوقلة في كلّ ركعةٍ من القدريّة.

الرابع عشر: أنّ سرّ الحوقلة يظهر يوم تُبلى فيه السرائر والأسرار، وهو يوم قيام الحقّ بساقه.

الخامس عشر: أنّ التسليم قد تمثّل أصله في المعراج، وأُلهم الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ بما يقول فيه.

السادس عشر: أنّ تأويل السلام هو الترحّم والأمان، وأنّ الدخول في الصلاة

كان بتحريم الكلام الآدميّ، والخروج منها بتحليله.

السابع عشر: أنّ علّة اختصاص التسليم باليمين هو: التوجّه الى كاتب الحسنات، وسبب التعبير فيه بالجمع هو: شموله لمن في اليسار من الملك، وأنّ في سلامة الصلاة سلامة سائر الأعمال.

الثامن عشر: أنّ عادة العرب قد استقرّت على إحساس الأمن بالتسليم، وأنّ السلام أمن للصلاة من الفساد.

التاسع عشر: أنّ السلام من الأسماء الفعليّة لله، وأنّ الإنسان الكامل مظهر له، وأنّ الملائكة يُسلّمون على المؤمن التقيّ النقيّ، وأنّ السلام العالميّ إنّما اختصّ في القرآن بنوحٍ عليه السّلام، وأنّ الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ مأمور بالتسليم على من يجيئه لتعلّم المعارف.

الموفى عشرين: أنّ المصلّي المناجي ربّه، الغائب عمّا سواه يتمشّى منه التسليم، وأنّ المصلّي الساهي الّذي له الويل لم يكن غائباً عمّا سواه حتّى يقدم عليهم، فكيف يتمشّى منه التسليم؟ إلاّ أنّه كان مرائياً، حيث إنّه بسلامه يُري أنّه كان مناجياً ربّه، غائباً عمّن عداه فقَدِمَ فسلّم، والّذي يراه المرائي ويُريه أنّه يعبد الحقّ هو: السراب الّذي يحسبه الظمآن ماءً.

الخاتمة

في أسرار تعقيبات الصلاة

إنّ الصلاة متقوّمة في داخلها بالنجوى؛ لأنّ المصلّي يناجي ربّه، فليست الصلاة إلّا النجوى، ومحفوفة في حاشيتها بالدعاء؛ لأنّ المصلّي يستقبل صلاته، وكذا يعقبها بذلك، فليست المقدّمة ولا المؤخّرة إلّا الدعاء؛ وذلك لأنّ العبد التامّ هو الّذي يكون متقوّماً بالنجوى، ومحفوفاً بالدعاء القادم والغابر، إذ لا يجد العبد في ذاته إلّا الفيض الإلهيّ الخاصّ الّذي قوّمه، ولا يشاهد مابين يديه ولا ماخلفه إلّا الجود الإلهيّ الذي تقدّم عليه وتأخّر منه، فليس هو نفسه إلّا فيضاً محفوفاً بالجود، ويمثّل كيانه الخاصّ بالصلاة المحفوفة بالدعاء والمسألة.

والأصل في ذلك: هو ما قالته الملائكة الّذين هم عباد مكرمون، لا يسبقون الله في القول، وهم بأمره يعملون، فلا يشاهدون إلّا معبودهم، حيث قالوا: «وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك له مابين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك وما كان ربُّك نَسيّاً»[1]، لدلالة هذه الآية الكريمة على أُمور:

الأوّل: أنّ نزول الملك إنّما هو بأمره الّذي إذا أراد شيئاً يقول له: كن، فيكون، وحيث إنّ الصعود كالنزول فلا يتصعّدون إلّا بأمره تعالى.

الثاني: أنّ ما تقدّم الملك وسبقه ممّا كان وجوده ـ أي: الملك ـ يتوقّف عليه فهو لله تعالى.

---

(١) مريم: ٦٤.

الثالث: أنّ ما تـأخّره ولحقه ممّـا كان وجوده ـ أي: الملك ـ سبباً له ومؤثّراً فيه ـ لتوقّف ذلك الشيء على وجوده ـ فهو لله تعالى.

الـرابع: أنّ ما تخلّل بين ذلك القـادم وهذا الغـابر ـ أي: نفس وجـود الـمَلَك المحفوف بمـا تقـدّم عليـه، وبما تـأخّر عنـه ـ فهـو لله تعالى، وهـذا الأمر الـرابع غامض غايـته، ولا ينـكشف إلّا لمن شاهد صـمديّة الله تعالى، وأجـوفيّة ماعداه واعـتماله، وإلّا لمن تـدبّر قوله تعـالى: «واعلموا أنَّ الله يحولُ بين المرء وقلبه»[١]، إذ القلب هو الأصل المحقّق لـموجـوديّـة الإنسـان، فإذا كان الله الّذي لاحـدَّ لـوجـوده حـائلاً بين الإنسان ونـفسه بلاامتزاج يكـون خارجـاً عنه أيضاً بلا تـزايل، ولا خِصّـيصة لذلك بالإنسان، بـل يعمّـه، والملك والفـلك من الذرّة إلى الـدرّة، ومن الثـرى الى الثّريا، وأيّ موجودٍ من الثقلين. فـعليه، لو شاهد أيّ شـيء ما شاهدته الملائكـة لقال أيضاً ما قالته هؤلاء الكرام، من: أنّ لله سبحانه ماتقدّم، وما تأخّر، وما تخلّل بين السابق واللاحق، فلا يبقى هناك إلّا وجه الله الباقي، ويظهر فناء ماعداه البالي.

والحـاصـل: أنّ المصلّي المناجـي ربّـه يتحلّى بحليـة الصلاة، ويتصوّر بصورتها، والصلاة لـيست إلّا المناجاة مع الله، ولا حقـيقة للنـجوى إلّا وجـه الله الباقي، فلا سـهم للصـلاة الّتي اتّحد بهـا المصلّي إلّا شهـود وجه الله، الحافّ لـلصلاة بحدودها الداخليّة، وحواشيها الخـارجيّة، ومن هنا يظهـر سرّ فاتحة الصلاة السابقة عليها، وسرّ خاتمتها اللاحـقة لها، ولعلّـه لذا قال الله سبحانه: «فإذا فَرغت فانصَب * وإلى ربِّك فارغَب»[٢]، أي: إذا فرغت من صـلا تـك (على احتمالٍ) فانصب نفسـك لإدامة العبـادة بتعقـيبها، ولتـكن رغبتـك إليه تـعالى دون ماعداه، وحـيث إنّ الرهـبة على وزان الرغبـة فإذا انحصرت الرغـبة الى الله تعـالى، لإفادة تقديم الجـارّ ذلك تـنـحصر الـرهبة فيه تعـالى؛ لأنّ مسـاقهما واحد. وقد روى مسعدة بـن صدقة، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ أنّـه قال في قـوله تعالى: «فإذا فرغت... إلى آخره» أي: إذا قضيت

---

(١) الأنفال: ٢٤. (٢) الانشراح: ٧ و٨.

الصلاة... فانصب في الدعاء[١].

ولمّا لم يعيّن للتعقيب أمَد خاصّ، كما أنّه لم يحدّد للاستقبال زمان مخصوص، وكان أيّ شيء يأتي على العبد السالك سبيل معبوده إنّما هو واجب أو مستحبّ، ولا ينافي ما يفعله مايقوله ويدعو به ويتلوه فهو دائم في صلاته، فلذا يصحّ له أن يقول متأسّياً بمواليه الكرام الّذين جعلهم الله أُسوةً حسنةً للناس: «إنَّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين»[٢]، وهذا العبد الصالح لايهتمّ إلّا بوجه الله، فهو من روح الله كما نطق به الصادق المصدّق عليه السَّلام، ناقلاً عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه: «من أصبح من أُمّتي وهمّه غير الله فليس من الله»[٣]، لدلالته على أنّ همّه هو الله فهو منه تعالى، أي: من وجهه الخاصّ.

وقد جعل لذلك ميزان القسط يَزنُ به كلّ سالكٍ نفسه، حتّى يتبيّن له أنّه من الله الباقي، أو من غيره الهالك، وهو قول الصادق عليه السَّلام: «من أراد أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده»[٤]، إذ القلب مرآة لمقلّب القلوب، كما أنّه تعالى أيضاً مرآة للقلب، بل لكلّ ماعداه، حيث إنّه ينكشف به كلّ ماعداه، فمن أراد أن يرىٰ ماله عندالله فليتدبّر في قرآن قلبه الذي: إن كان صالحاً يكتب الله تعالى فيه الإيمان، ويؤيّده بروح منه، فإذا شاهد مرآة قلبه وتدبّرها يرىٰ ما انطبع فيها، أو تمثّل لها ممّا هو عندالله؛ لأنّ قلب المؤمن مرآة لله الّذي هو المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر، فينعكس فيها ما في مرآة ربّه، فيعلم: أنّ له عندالله شأناً من الله، وهو عنده تعالى وجيه أم لا. وهذا السالك وإن كان همّه هو الله ولا يهتمّ بماعداه ولكنّه بَعدُ يشاهد في مرآة قلبه ماله عندالله، فهو الآن يشاهد قلبه وما فيه الحاكي

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٣٥٦.

(٢) الأنعام: ١٦٢.

(٣) المحاسن للبرقيّ : ج١ ص٣٢٤ طبع المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السَّلام.

(٤) المصدر السابق.

ماعندالله، فهو بعدُ لم يصل الى حدٍّ لا يرىٰ غير الله تعالى.

وحيث إنّ التعقيب كلفةٌ زائدة على الصلاة الواجبة الّتي هي بنفسها تكون كبيرةً إلّا على الخاشعين، مع مالَه من الأثر الهامّ في دوام العبادة، ورد في حقّه عن الصادق عليه السَّلام: «ما عالج الناس شيئاً أشدَّ من التعقيب»[١]، وللاهتمام بأمر التعقيب قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من أدّى لله تعالى مكتوبةً فله في أثرها دعوة مستجابة»[٢]، وقال الصادق عليه السَّلام: «ثلاثُ أوقاتٍ لا يحجب فيها الدعاء عن الله تعالى: في أثر المكتوبة، وعند نزول المطر، وظهور آيةٍ معجزةٍ لله في أرضه»[٣]، وقال ـعليه السَّلامـ أيضاً: «مَن صلّى صلاة فريضةٍ وعقّب الى أُخرى فهو ضيف الله عزَّوجلّ، وحقٌّ على الله أن يكرم ضيفه»[٤]، بل قد نهي عن ترك التعقيب؛ لإيهامه الاستغناء عن الله تعالى، حسبما روي عن النبيّ ـصلّى الله عليه وآلهـ أنّه قال: «إذا فرغ العبد من الصلاة ولم يسأل الله حاجته يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي، فقد أدّى فريضتي ولم يسأل حاجته منّي، كأنّه قد استغنى عنّي، خُذوا صلاته فاضربوا بها وجهه»[٥].

وحيث إنّ للتعقيب مراتبَ فقد ورد في جواب من سأل الصادق عليه السَّلام: إنّي أخرج (في الحاجة) وأُحبّ أن أكون معقِّباً، أنّه ـعليه السَّلامـ قال: «إن كنت على وضوءٍ فأنت معقِّبٌ»[٦] هذا مجمل القول في أصل التعقيب ورجحانه. وأمّا ماورد في تعيينه ونبذٍ من أسراره ففي مايلي:

نقِل حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر ـعليه السَّلامـ قال: «إذا سلّمت فارفع

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٣٥٦، عن التهذيب.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٥٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٦١.

(٦) المصدر نفسه: ص٣٦٢.

يديك بالتكبير ثلاثاً»[1]، ولعلّ سرّ الرفع هو: تمثّل الرفع الوجوديّ بالرفع الصوريّ، وتمثّل أيضاً لرفع الحجاب كما مرّ في الفاتحة، ولعلّ سرّ التثليث هو: ما أُشير إليه في ثنايا البحث المتقدّم من: أنّ سرّ تكرار كلمة «وحده» ثلاثاً في كلمة التوحيد هو: التنبه للمراحل الثلاث من التوحيد الذاتيّ والوصفيّ والفعليّ، وهكذا هنا، حيث يتبيّن أنّ الله سبحانه أكبر من أن يشركه شيء في الذات، أو الوصف، أو الفعل.

ولا ينافي ذلك ما ورد في حقّ تسبيح فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ من أنّه: «ما عُبِدَ الله بشيءٍ من التمجيد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السَّلام، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فاطمة عليها السَّلام»[2]. وقال عليه السَّلام: «من سبَّح تسبيح فاطمة ـ عليها السَّلام ـ فقد ذكر الله الذكر الكثير»[3]، ولأنّ ذلك كلّه بمنزلة شرح المتن، وبسط المقبوض، والتغاير بينهما إنّما هو بالإجمال والتفصيل، وللاهتمام بتسبيح فاطمة عليها السَّلام.

قال الصادق عليه السَّلام: «إنّا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة ـ عليها السَّلام ـ كما نأمرهم بالصلاة...»[4].

وقد أمر في التعقيب بأُمورٍ ناجحةٍ نافعةٍ، وأنجحها وأنفعها مايرجع إلى التوحيد والولاية وإن كان مآل الكلّ هو التوحيد، وقد أكّد بقراءة آية الكرسيّ الحاوية للاسم الأعظم، وقد وعد بقراءتها بما تقرّ به العيون، حيث إنّه روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال: «من قرأ آية الكرسيّ عقيب كلّ فريضةٍ تولّى الله ـ جلّ جلاله ـ قبض روحه، وكان كمن جاهد مع الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ حتّى استشهد»[5]، ولم يرغّب في التعقيب بقراءة سورة المسد «تبّت يدا أبي لهب...»

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٣٦٤.

(٢) و (٣) المصدر نفسه: ص٣٦٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦٨.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٤.

بمثل ما ورد في سورة التوحيد، أو آية الكرسيّ ونحو ذلك، وهكذا ما ورد في التصلية على أهل بيت النبوّة والعصمة عليهم السَّلام؛ لأنّهم مظاهر للاسم الأعظم، ومجالي للولاية الإلهيّة.

وروى الشيخ أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره، عن أمير المؤمنين عليٍّ -عليه السَّلام- أنّه قال: «رأيت رسول الله -صلّى الله عليه وآله- على أعواد هذا المنبر وهو يقول: من قرأ آية الكرسيّ عقيب كلّ فريضة مايمنعه من دخول الجنّة إلّا الموت، ولا يواظب عليه إلّا صِدِّيق أو عابد، ومن قرأها عند منامه آمنه الله في نفسه وبيته وبيوت من جواره»(١).

والمراد من المنع: هو الحجب، إذ المؤمن يرث الفردوس حسب درجاته من العالي والأعلى، ولا يحجبه عن هذا التراث الإلهيّ إلّا حفظ الحياة الدنيويّة، فإذا فارقها بالموت الطبيعيّ دخل إليه وورثه، كما أنّ من فارقها بالموت الإراديّ ناله أيضاً. ويؤيّده ما ورد من: «أنّ الإقرار بإمامة أهل البيت -عليهم السَّلام- هو الجنّة، ومن أقرَّ بها كان في الجنّة»(٢).

وليعلم: أنّه قد تجلّى في موطنه أنّ كلّ ذكرٍ إلهيّ هو حيّ مُسبّح، وأنّ سرّه العينيّ كان مستقرّاً في العرش، وأنّ تنزّله: عبارة عن تدلّي الأمر التكوينيّ العالي من الوجود الإلهيّ إلى العقليّ، ومنه إلى المثاليّ، ومنه الى الطبيعيّ المتبلور في نشأة الاعتبار بالوجود اللفظيّ، فإن قرع سمعك أنّ بعض الآيات حين الهبوط إلى الأرض تعلّق بالعرش، وقال: ما سأل الملائكة ممّا يشعر بوجود الخطأ في الأرض وأهلها فَذَره في بقعة الإمكان، أي: الاحتمال العقليّ، ثمّ البرهان النيّر يهدي إلى الإمكان الفلسفيّ المقابل للاحتمال المذكور؛ لأنّ ذلك بمعنى: ما لم يدلّ دليل على امتناعه، لا ماقام الدليل القيّم على إمكانه المقابل له وللوجوب، ثمّ يساعده العرفان

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٣٨٤، عن مستدرك الوسائل، عن تفسير أبي الفتوح.

(٢) المحاسن للبرقيّ: ج١ ص ٢٦٢.

والكشف الصحيح المنصور بالمأثور من الوحي، وإليك نموذج من ذلك :

روى الكلينيّ -رحمه الله- في جامعه ...،-عن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- قال: لـمّا أمر الله -عزّوجلّ- هذه الآيات أن يهبطن إلى الأرض تعلّقن بالعرش، وقلن: أي ربّ، إلى أين تهبطنا؟ إلى أهل الخطايا والذنوب؟ فأوحى الله -عزّوجلّ- إليهنّ :اهبطنّ، فوعزّتي وجلالي، لا يتلوكنّ أحد من آل محمّد -صلّى الله عليه وآله- وشيعتهم في دَبْر ما افترضت عليه من المكتوبة في كلّ يوم إلّا نظرت إليه بعيني المكنونة في كلّ يوم سبعين نظرة، أقضي له في كلّ نظرة سبعين حاجة، وقبلته على ما فيه من المعاصي، وهي: «أُمّ الكتاب»، و«شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكةُ وأُولوا العلم»، و«آية الكرسيّ» و«آية الملك»[١]. فمن قرأها وذكرها عقيب مناجاته مع الله لعلّه يترقّى من وجودها الاعتباريّ إلى الحقيقيّ الطبيعيّ أوّلاً، وإلى المثاليّ ثانياً، وإلى العقليّ ثالثاً، وفوق ذلك ما لايناله إلّا الأوحديّ الفاني في الباقي، الغافل عمّا عداه، الساهي عمّا سواه، فالتعقيب البالغ: هو الّذي نال سرّه العقليّ، فمعه يتعلّق بالعرش، كما أنّ سرّ تلك الآيات والأذكار المأثورة كان متعلّقاً به.

وممّا لا ينبغي الذهول عنه هو: أن المؤثّر في النفس والعين لابدّ وأن يكون موجوداً عينيّاً فوق الموجود المتأثّر العينيّ، كما أنّ المتأثّر إنّما يتأثّر من الموجود العينيّ الفائق، إذ لا أثر للوجود اللفظيّ، أو المفهوم الذهنيّ، فالمؤثّر هو: سرّ العلم الدارج في الكتب والأفواه والأذهان، كما أنّ المتأثّر إنّما هو قلب من تأثّر من سرّ العلم وروحه، لا مفهومه، فلذا كان رسول الله -صلّى الله عليه وآله- يدعو في إثر الصلاة فيقول: «اللّهمّ إنّي أعوذبك من علمٍ لاينفع، وقلبٍ لايخشع، ونفسٍ لا تشبع، ودعاءٍ لايُسمع، اللّهمّ إنّي أعوذبك من هؤلاء الأربع»[٢].

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٢٠ ح٢.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص ٣٩٤.

فالمطلوب المرغوب فيه هو: سرّ العلم وروحه، والمزهود فيه هو: جَسَد العلم وبدنه الظاهر باللفظ أو الكتابة أو المفهوم الذهنيّ فقط، ولمّا كان السرّ الغائيّ هو التوحيد، ووعاؤه الواقي هو العقل الجامع، والأُذن الواعية،والقلب المعمور بالذكر، والنفس المسرورة بالطاعة و...

روى معاوية بن وهب البجليّ قال: وجدت في ألواح أبي بخطّ مولانا موسى ابن جعفر عليهما السَّلام: «أنّ من وجوب حقّنا على شيعتنا: أن لا يثنوا أرجلهم من صلاة الفريضة،أو يقولوا: اللّهمّ ببرّك القديم ورأفتك ببريّتك اللطيفة، وشفقتك بصنعتك المحكمة، وقدرتك بسترك الجميل وعلمك صلّ على محمّد وآل محمّد، وأحيي قلوبنا بذكرك ، واجعل ذنوبنا مغفورةً، وعيوبنا مستورةً، وفرائضنا مشكورةً، ونوافلنا مبرورةً، وقلوبنا بذكرك معمورةً، ونفوسنا بطاعتك مسرورةً، وعقولنا على توحيدك مجبورة، وأرواحنا على دينك مفطورةً، وجوارحنا على خدمتك مقهورةً، وأسماءنا في خواصّك مشهورةً، وحوائجنا لديك ميسورةً، وأرزاقنا من خزائنك مدرورةً، أنت الله الّذي لا إله إلّا أنت، لقد فاز من والاك ، وسعد من ناجاك ، وعزّ من ناداك ، وظفر من رجاك ، وغنم من قصدك ، وربح من تاجرك ، وأنت على كلّ شيءٍ قدير، اللّهمّ وصلّ على محمّد وآل محمّد، واسمع دعائي كما تعلم فقري إليك ، إنّك على كلّ شيءٍ قدير»[١].

وحيث كان الهدف السامي من العبادة هو: لقاء الله كتب مولانا محمّد بن عليّ الرضا -عليهما السَّلام- الى محمّد بن الفرج في الانصراف من صلاةٍ مكتوبة: «... أسألك الرضا بالقضاء، وبردّ العيش بعد الموت، ولذّة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضرّاء مضرّةٍ ولا فتنةٍ مضلّة...»[٢].

وحيث إنّ لقاء الله مع كماله وجماله أجلّ من أن يناله، عدا الأوحديّ الفارغ عمّا يشغله عن اللقاء، وهو صعب على من اعتاد بما عدا، وأنس بما سوى، أوصى

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٣٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠١.

الصادق -عليه السَّلام- الى رجلٍ سأله: من آنس به في آخر عمره؟ بقوله عليه السَّلام: «فعليك بالدعاء، وأن تقول عقيب كل صلاةٍ: اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، اللَّهمَّ إنّ الصادق الأمين -عليه السَّلام- قال: إنّك قلت: ما تردّدت في شيءٍ أنا فاعله كتردّدي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، وعجّل لوليّك الفرج والعافية والنصر، ولا تسؤني في نفسي ولا في أحدٍ من أحبّتي...»(١).

ولمّا كان الحديث ناظراً إلى مقام الفعل لا الوصف الذاتيّ فضلاً عن الذات لاضَيْر في تطرّق التردّد إليه، مع أنّه قد فسّر له في الحكمة المتعالية عند البحث عن القدرة بما لا يخلو عن الدقّة فراجع.

وليعلم: أنّ للنيل إلى السرّ المكتوم أسباباً وعللاً خفيّةً، موطنها عقيب الصلاة الّتي ناجى بها العبد مولاه، فيستعدّ حينذاك للوصول إلى بعض السرّ، ومن تلك الأسباب: هي الأذكار المأثورة، والأوراد الواردة الّتي أُشير إلى نبذٍ منها، ومن تلك العلل هو: قضاء أوطار العباد المحاويج، وحلّ معضلاتهم، ولذا كان رسول الله -صلّى الله عليه وآله- إذا صلّى الغداة استقبل القبلة بوجهه الى طلوع الشمس يذكر الله عزَّوجلّ، ويتقدّم عليّ بن أبي طالب -عليه السَّلام- خلف النبيّ صلّى الله عليه وآله، ويستقبل الناس بوجهه فيستأذنون في حوائجهم، بذلك أمرهم رسول الله صلّى الله عليه وآله(٢).

ثمّ إنّ من سُنن التعقيب سجدة الشكر، وسرّ السجود هو التذلّل المتمثّل به، كما أنّ سرّ الركوع هو التعظيم، وسرّ الطواف هو التفدية المتمثّل ذلك بهما.

وقد نقل في توقيع مولانا صاحب العصر عليه السَّلام أنّ: «سجدة الشكر من ألزم السنن وأوجبها، ولم يقل: إنّ هذه السجدة بدعة إلّا من أراد أن يحدث في دين الله بدعة...»(٣).

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٠٤. (٢) المصدر نفسه: ص٤٣٨. (٣) المصدر نفسه: ص٤٥٣.

ومن علل اصطفاء موسى الكليم -عليه السَّلام- هو: توغّله في التذلّل لله، المتجلّي ذلك بإلصاقه -عليه السَّلام- خدّه الأيمن والأيسر بالأرض بعد الصلاة، وحيث علم موسى -عليه السَّلام- أنّ الله اصطفاه لتذلّله زاد في ذلّته فخرّ ساجداً، وعَفَرَ خدّيه في التراب، فأوحى الله إليه: ارفع رأسك ياموسى، وأمرَّ يدك موضع سجودك، وامسح بها وجهك، وما نالتهُ من بدنك فإنّه أمان من كلّ سقمٍ وداءٍ وآفةٍ وعاهة[١].

ولمّا كان سرّ السجود هو التذلّل لله تعالى، والتذلّل له موجب للتقرّب منه كما في آخر سورة اقرأ -وذلك لأنّ المتذلّل لله لا يحجبه شيء، فإذا لم يكن له حجاب، وكان الراحل إلى الله قريب المسافة، كما في دعاء أبي حمزة الثمالي- فهو يصل إلى لقاء الله، ومن كان أذلّ في نفسه لله فهو أقرب منه، وكما في دعاء زين العابدين -المعروف بالسجّاد-: «وأنا بعدُ أقلّ الأقلّين، وأذلّ الأذلّين، ومثلُ الذرّة أو دونها»[٢]. فهو-عليه السَّلام- أقرب الأقربين، وأعزّ الأعزّين لدى الله سبحانه.

وحيث إنّه لا مَيْزَ في الأصول العامّة الهامّة للإمامة فأئمّة أهل البيت -عليهم السَّلام- كلُّهُم على هذا المنهج القويم، بل قد روي في أمير المؤمنين عليٍّ عليه السَّلام: «إنّه كان أوّل من سجد لله شكراً، وأول من وضع وجهه على الأرض بعد سجدته من هذه الأُمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه آله»[٣]، وكان عليّ -عليه السلام- يقول في سجوده: «أُناجيك يا سيّدي كما يناجي العبد الذليل مولاه...»[٤].

وحيث إنّ حياة كلّ ذكر من التهليل والتحميد والتسبيح والتكبير إنّما هي

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٥٢.

(٢) الصحيفة السجّاديّة: دعاء٤٧ ص٢٦٢ طبع مؤسسة النشر الإسلامي-قم.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٧٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٥٨.

بسرّه، كما أنّ إحياء كلِّ ذكرٍ لما هو ميّت في حجاب ذاته ووضعه وفعله إنّما هو بذلك السرّ، وكان ذكر الإمام المعصوم ـ عليه السّلام ـ وسجوده حيّاً بسرّه، لذا كان ذكره مُحيياً للأموات، وموقظاً للنيام وإن كان كلّ شيءٍ حيّاً متيقّظاً في باطنه.

ومن هذا القبيل: ما روي عن سعيد بن المسيّب قال: كان القوم لا يخرجون من مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسين سيّد العابدين عليه السّلام، فخرج فخرجت معه، فنزل في بعض المنازل وصلّى ركعتين، فسبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبّحوا معه، ففزعنا، فرفع ـ عليه السّلام ـ رأسه وقال: ياسعيد، أفزعت؟ فقلت: نعم، يا ابن رسول الله، فقال عليه السّلام: هذا التسبيح الأعظم...[1].

والّذي يمكن القول في تأثير مثل هذا التسبيح الأعظم: أوّلاً: هو تعليم الشجر والمدر ونحوهما بلسان التكوين، بما هو لم يكن معلوماً له قبل ذلك وإن كان أصل التسبيح معلوماً ومقدوراً له.

وثانياً: هو تأويب ذلك مع الإمام المعصوم ـ عليه السّلام ـ تأسّياً به كما تأسّىٰ بداود ـ عليه السّلام ـ حين أمر الله سبحانه بذلك، كما قال تعالى: «ياجبالُ أوِّبي مَعَهُ»[2] فقد اجتمعوا معه، وذكروا الله ووحّدوه معه كما هو المعروف في الائتمام بإمام الجماعة.

وثالثاً: هو رفع الحجاب والغطاء عن أسماع هؤلاء الّذين كانوا مع السجّاد عليه السّلام، وأبصارهم، حتّى سمعوا تسبيح الشجر والمدر وفقهوا ذلك، بعد ما كانوا جاهلين به، كما قال سبحانه: «إنْ مِنْ شيءٍ إلّا يسبّح بحمدهِ ولكن لا تفقهون تسبيحهم»[3]، إلى غير ذلك ممّا يمكن أن يناله المتدبّر في سرّ التسبيح الأعظم وتأثيره في الكيان، حينما يعترف بأنّه غير مختصٍّ بالإمام المعصوم ـ عليه السّلام ـ وإن كان الحدّ السامي منه مخصوصاً بأهل العصمة عليهم السّلام،

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٦٠.
(٢) سبأ: ١٠.
(٣) الإسراء: ٤٤.

والغرض: هو أنّ العبد إذا أحسَّ ذلّته وأدركها واعترف بها وتذلّل لمولاه الّذي له العزّة جميعاً ينال ما أُعدّ له من العزّة العرضيّة، ويقول كما كان الصادق -عليه السّلام- يقول وهو ساجد: «سجد وجهي اللئيم لوجه ربّي الكريم»(١).

ثمّ إنّه من كان يريد العزّة فليعلم: أنّ العزّة لله جميعاً، ولا ينال شيئاً منها إلاّ بنفيها عن نفسه وعن غيره، أي: عمّا سوى الله، وذلك إنّما يتجلّى في السجود المشفوع بما يمثّل الذلّة، حتّى يقترن الفعل والقول، ويشهدا على صاحبهما بالذلّة الصادقة، الموجبة لاكتساب العزّة الّتي هي بالعرض للرسول وللمؤمنين، ولعلّ من هذا القبيل ماقاله الصادق -عليه السّلام- لإسحاق بن عمّار: «إنّي كنت أُمهّد لأبي فراشه، فأنتظره حتّى يأتي، فإذا أوى إلى فراشه ونام قمت إلى فراشي، وأنّه أبطأ عليّ ذات ليلةٍ، فأتيت المسجد في طلبه، وذلك بعد ماهَدَأ الناس، فإذا هو في المسجد ساجد، وليس في المسجد غيره، فسمعت حنينه، وهويقول: «سبحانك اللّهمّ أنت ربّي حقّاً حقّاً، سجدت لك ياربّ تعبّداً ورقّاً، اللّهمّ إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي، اللّهمّ قِني عذابك يوم تبعث عبادك، وتُبْ عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»(٢).

ولقد تأسّىٰ بهؤلاء المعصومين عليهم السّلام -الّذين هم ساسة العباد وقادتهم، وأركان البلاد وأعمدتها، بحيث لولاهم لساخت الأرض بأهلها- غير واحدٍ من الصحابة في طول السجود، والتذلّل المستمر. وإليك نبذ من نزر:

قال الفضل بن شاذان: دخلت العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال، وتحتاج أن تكتسب عليهم، وماآمن أن تذهب عيناك لطول سجودك، فلمّا أكثر عليه قال: أكثرت عليّ، ويحك، لو ذهبت عين أحدٍ من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير، ماظنّك برجلٍ سجد سجدة الشكر بعد صلاة

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٦٣.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٦٤.

الفجر فلا يرفع رأسه إلّا عند الزوال(١)؟

وعن الفضل بن شاذان: أنّه دخل على محمّد بن أبي عمير وهو ساجد، فأطال السجود، فلمّا رفع رأسه ذكر له الفضل طول سجوده، فقال: كيف لو رأيت جميل ابن درّاج؟ ثمّ حدّثه أنّه دخل على جميل بن درّاج، فوجده ساجداً فأطال السجود جدّاً، فلمّا رفع رأسه قال له محمّد بن أبي عمير: أطلت السجود؟ فقال: وكيف لو رأيت معروف بن خربوذ(٢)؟

ونقل الفضل بن شاذان ما مثاله: أنّ الحسن بن عليّ بن فضّال كان أعبد أهل عصره وأطول سجوداً من غيره(٣).

إيّاك والتعجّب ممّا ذُكر أو يُذكر في هذا الأمر؛ لأنّ المُحبّ يلتذّ بمناجاة محبوبه، وأقرب الحال هو السجود المتجلّي فيه التذلّل المستلزم للرقيّ.

فتبيّن في هذه الخاتمة أُمور:

الأوّل: أنّ قوام الصلاة هو النجوى مع الله، وقادمها وغابرها الدعاء، وأنّ المصلّي الشاهد لفقره الذاتيّ والوصفيّ والفعليّ لايجد في نفسه إلّا فيض مولاه المحيط به من بين يديه وما خلفه وما بين ذلك. كما أنّ المَلَك المقرّب أيضاً كذلك.

الثاني: أنّ التعقيب موجب لدوام الصلاة وامتدادها، بحيث يكون المصلّي المُعقِّب دائماً في صلاته.

الثالث: أنّ قلب المؤمن مرآة صدق، يرى به السالك مالله عنده وما له عند الله تعالى.

الرابع: أنّ الدعاء مستجاب حال التعقيب، وأنّ ترك الدعاء والمسألة عقيب الصلاة مُوهمٌ للاستغناء عن الله.

الخامس: أنّ للتعقيب مراتب، وأنّ المصلّي مادام متطهّراً فهو في التعقيب.

---

(١) و(٢) و(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٥ ص٤٥٥.

السادس: أنّ سرّ رفع الأيدي بالتكبير هو: تمثّل الرفقة المعنويّة بالرفع الصوريّ، وتمثّل لرفع الحجاب أيضاً، وأنّ تثليثه للمراحل الثلاث من التوحيد.

السابع: أنّ تسبيح فاطمة -عليها السّلام- هو: الذكر الكثير، وأنّ أهل البيت -عليهم السّلام- كانوا يأمرون صبيانهم بذلك.

الثامن: أنّ أنجح ما أُمر به في التعقيب هو: ما يرجع إلى التوحيد والولاية.

التاسع: أنّ الموت الإراديّ كالطبيعيّ سبب لمشاهدة نتيجة قراءة آية الكرسيّ في التعقيب.

العاشر: أنّ الاعتراف بإمامة أهل البيت -عليهم السّلام- هو الجنّة، وأنّ المعترف بها في الجنّة وإن لم يعلم بذلك.

الحادي عشر: أنّ كلّ ذكرٍ إلهيٍّ هو حيّ ناطق مُسبِّح، وأنّ سرّه التكوينيّ قد تدلّى وتدنّى إلى الوجود الطبيعيّ، ومنه إلى الوجود الوضعيّ الاعتباريّ بعد تنزّله وتطوّره في المراحل السابقة.

الثاني عشر: أنّ التأثير الخارجيّ للذكر إنّما هو بلحاظ سرّه العينيّ، لا وجوده اللفظيّ، أو الكتبيّ، أو مفهومه الذهنيّ.

الثالث عشر: أنّ العلم النافع: هو السرّ التكوينيّ لا ماعداه، وأنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- كان يعوذ بالله في التعقيب من الأربع، وأنّ لقاء الله هو المطلوب بعد الصلاة عند الأئمّة عليهم السّلام.

الرابع عشر: أنّ التردّد منتزع من فعل الواجب، لا من وصفه الذاتيّ فضلاً عن الذات، وأنّ تردّده تعالى في قبض روح المؤمن له وجه معقول ومقبول.

الخامس عشر: أنّ قضاء وطر المحاويج إذا كان لله فهو معدود من التعقيب.

السادس عشر: أنّ سجدة الشكر من ألزم السُنن في التعقيب، وأنّ السجود تمثّل للذلّة، كما أنّ الركوع تمثّل للعظمة، وأنّ الطواف تمثّل للتفدية.

السابع عشر: أنّ موسى الكليم -عليه السّلام- كان أذلّ أهل عصره لله تعالى، وأنّ اصطفاءه كان لذلك، وأنّ الرحلة إلى الله تعالى قريبة المسافة.

الثامن عشر: أنّ الإمام المعصوم -عليه السَّلام- يكون أذلّ العباد لله في عصره، فلذا يكون أرفعهم عندالله، وأنّ علياً -عليه السَّلام- هو أوّل من سجد شكراً لله بعد الرسول صلّى الله عليه وآله.

التاسع عشر: أنّ تسبيح الإمام المعصوم -عليه السَّلام- موجب لتسبيح الشجر والمدر وتأويبهما معه -عليه السَّلام- فيه، وأنّ المؤثّر في ذلك هو: سرّ الذكر، لا لفظه، ولا مفهومه الذهنيّ، وأنّ النيل إلى ذلك المقام ليس وقفاً للمعصوم عليه السَّلام.

الموفى عشرين: أنّ طريق الوصول إلى العزّة هو التذلّل المتمثّل بالسجود، وأنّ غير واحدٍ من الصحابة قد تأسّوا بأهل البيت -عليهم السَّلام- في طول السجود.

ولنختم الرسالة بالوصيّة لنفسي ولمن بَلغته هذه الرسالة: بأنّ الذهول عن الله رَيْن، وأنّ الصلاة لكونها ماء الحياة سبب لغسل الدَّرَن والرَين، كما نقله عليّ -عليه السَّلام- عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله- في قوله عليه السَّلام: «شبّهها -أي: الصلاة- رسول الله -صلّى الله عليه وآله- بالحمّة تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّاتٍ، فما عسى أن يبقى عليه من الدّرَن»[1]، فالذكر الّذي يحصل بالصلاة مزيل لأيِّ رَيْن، وقد اعتنى في يوم الجمعة بصلاتها لأجل الذكر، وإليك بعض ما يرتبط بذلك:

الأوّل: كون صلاة الجمعة مصداقاً كاملاً للذكر، حيث قال تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا نُودي للصلاة مِن يَوم الجُمعة فاسعوا إلى ذكر الله»[2].

الثاني: الأمر بالسعي إلى ذكر الله، أي: صلاة الجمعة، وترك كلّ ماسواها، إذ لا خصّيصة للبيع، بل لابدّ من ترك أيّ شيءٍ ينافيها.

الثالث: النهي عن الإعراض عن ذكر الله -أي: صلاة الجمعة- كما في سورة المنافقين، حيث قال تعالى فيها: «يا أيُّها الّذينَ آمنُوا لا تُلْهِكُمْ أموالُكُم وَلا

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة «١٩٩».

(٢) الجمعة: ٩.

أولادُكُم عن ذكر الله»[١].

الرابع: رجحان قراءة سورتي: الجمعة والمنافقين في صلاتها، للاشتمال على تلك النكات المارّة.

وللاعتناء بالصلاة الَّتي هي عمود الدين قال تعالى في حقّ المنافقين: «وَإذا قامُوا إلى الصلاة قاموا كُسالىٰ»[٢] يعني: أنَّ هؤلاء لا يعبدون الله أصلاً، سواء في ذلك الصلاة وماعداها: كالصوم والحجّ و...، وقد اكتفي في ذلك كلّه بعدم نشاطهم في الصلاة، وهكذا قيل في السكران، لقوله تعالى: «لا تَقربُوا الصلاة وأنتُم سُكارىٰ حتَّى تَعلموا ماتَقولون»[٣]، وحيث إنّ الساهي الَّذي يستحقّ الويل بمنزلة السكران الَّذي لا يدري مايأتي، فهو أيضاً منهيٌ عن قرب الصلاة؛ لأنّها كالقرآن، لا يمسّها إلّا الطاهر عن درن الذهول، وغسلين النسيان، ورَين الرياء ونحو ذلك.

وللاهتمام بأمر الصلاة اختصّ ذكرها في عبادة ماسوى الله إيّاه، حيث قال تعالى: «ألم تر أنَّ الله يُسبِّح له مَن في السموات والأرضَ والطيرُ صافَّاتٍ كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليمٌ بما يفعلون»[٤]. وهكذا رُزق زكريا التبشير بميلاد يحيى في الصلاة، كما قال تعالى: «فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلِّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيىٰ»[٥]. ومن هذا القبيل الدالّ على الاهتمام بالصلاة وحالها: هو ما ورد في شأن زكاة أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ وهو راكع؛ لأنّ أصل الزكاة وإن كان أمراً قُربيّاً قَريناً للصلاة في غير موضعٍ من القرآن إلّا أنّ اقترانها بها ـ أي: بالصلاة ـ لعلّه قد أوجب فضلاً زائداً باعثاً لنزول آية الولاية، حيث قال تعالى: «إنّما وليُّكم اللهُ ورسولُهُ والَّذين آمنوا الَّذين يقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهُم راكعون»[٦].

---

(١) المنافقون: ٩.

(٢) النساء: ١٤٢.

(٣) النساء: ٤٣.

(٤) النور: ٤١.

(٥) آل عمران: ٣٩.

(٦) المائدة: ٥٥.

وحيث إنّ الصلاة عمود الدين، وبإقامتها يقوم الدين، وبتضييعها يضيع الدين تشتعل نار الحرب بين المصلّي وبين عدوّه المبين، وهو الشيطان الغَويّ؛ لأنّه يريد أن يستحوذ عليه، ويحتنكه، ويَعدهُ ويمنّيه ويضلّه ويُزيّن له، فلذا يكون المصلّى محراباً، والمصلّي مجاهداً لله في طرد المحارب المهاجم ودفعه وأسره، فلابدّ وأن يكون متسلّحاً في هذه المحاربة، ولا سلاح للمؤمن إلّا التذلّل لله والتعبّد له، المتجلّي ذلك بالبكاء على نفسه، كما عن عليٍّ -عليه السَّلام- في دعائه الَّذي علّمه كميل -رحمه الله- حيث قال: «وسلاحه البكاء»، فمن لا يبكي لضيق اللحد، ولا لظلمة القبر، ولا لبعد السفر، ولا لقلّة الزاد، ولا لغير ذلك ممّا يُدهِش ويوحش فلا سلاح له في محاربة الشيطان الَّذي يوسوس في صدره. وأمّا إذا كان متسلّحاً فهو ينجو بنجواه، ويتخلّص ببكائه، حتّى يرد حصن التوحيد والولاية، فإذا دخله أمن من العذاب، ولا بكاء إلّا عن معرفة طامّة الموت، وما هو إلّا طمّ منه ممّا هو بعده، ولا يُعرف ذلك إلّا بالعقل المؤيّد بالنقل، وإلّا بالنقل المعتضد بالعقل، إلّا في الموارد الخاصّة الّتي لا سبيل للعقل إليها.

وممّا يكشف عن الاهتمام بالصلاة ما ورد في حقّها على المصلّي في كلّ صلاةٍ، بحيث يلزم عليه أن يُصلّي صلاته صلاة مودّعٍ حتّى يكون بإخلاصٍ وحضور، إذ الوداع يقتضي ذلك. وما ورد في حقّ الطواف أو الصوم أو نحو ذلك من اختصاصه بالطواف خاصّ ونحوه، فقد ورد في عامّة الصلوات بلا خصّيصة لشيءٍ منها، بل كلّ صلاةٍ فهي صلاة وداع، والسرّ هو ما أُشير إليه: «اللّهمّ اجعلنا من المصلّين الَّذين يناجونك وتناجيهم، ويكلّمونك وتكلّمهم في ذات عقولهم، حتّى نستصبح بنور يقظةٍ في الأبصار، والأسماع، والأفئدة»[1]، «عارف بالمجهول ومعروف عند كلّ جاهل»[2]، «وتعرّفت بكلّ شيءٍ»[3] اجعلنا عارفين بك،

(١) اقتباس من نهج البلاغة: الخطبة «٢٢٢».

(٢) الكافي: ج١ ص٩١ ح٢.

(٣) دعاء عرفة لسيّد الشهداء -عليه السَّلام-.

راغبين فيك، زاهدين في سواك بحقّ جميع الأنبياء والأولياء، سيّما محمّد وآله صلّى الله عليه وآله.

قد منّ الله عليّ بتسويد أكثر هذه الرسالة في شهر الله المبارك ١٤١٤هـ، وتسويد شطر قليلٍ منه في رحاب الغدير، على الناصب والمنصوب فيه بالخلافة آلاف الثناء والتحية.

١٨/ ذي الحجة/ ١٤١٤هـ ق

المطابق ٨/ خرداد/ ١٣٧٣ هـ ش

قم المحمية

عبدالله الجواديّ الآمليّ

الفهارس

فهرس الآيات

* * *

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

* * *

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

(١٠) سورة يونس

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٥) سورة الحجر

* * *

* * *

(٢٥) سورة الفرقان

(٢٦) سورة الشعراء

(٣١) سورة لقمان

(٣٤) سورة سبأ

(٣٦) سورة يس

(٣٧) سورة الصافّات

* * *

* * *

(٦٢) سورة الجمعة

(٦٣) سورة المنافقون

(٧٠) سورة المعارج

(٨٧) سورة الأعلى

(٩٤) سورة الانشراح

(٩٦) سورة العلق

(١٠٧) سورة الماعون

فهرس الأحاديث

-ب-

-ت-

-ث-

-ح-

-د-

-ر-

-س-

-ق-

-ك-

-ل-

فهرس المحتويات

المدخل

الفاتحة

في أسرار مقدّمات الصلاة

الخاتمة

في أسرار تعقيبات الصلاة

الفهارس